

محمود ياسين

مدن لا يعرفها العابرون

محمود ياسين

الإهـــداء..

إلــى أبــي وأمــي..

محمود

تقديـم

عندما قيل أن الصحافة مهنة المتاعب كنت أظن أن هنالك مبالغة في هذه المقولة رغم أنني أعمل في حقلها منذ أكثر من عشرين عاما... لكنني عندما اتخذت قرارا مع بعض زملائي بإصدار مجلة (نوافذ) عام ١٩٩٧م كمجلة سياسية ثقافية اجتماعية تنويرية كنت أظن أن الأمر سيكون سهلا خاصة مع وجود كادر مهني متميز سيتولى هذه المهمة... لكن المصاعب مختلفة الأشكال والألوان التي واجهت (نوافذ) جعلتني أتيقن أننا نخوض مهمة صعبة إن لم تكن مستحيلة ولذلك تعرضت (نوافذ) للتوقف وللتوقيف وللاتهامات وللانتقادات وغير ذلك ؛ إلا أن (نوافذ) تركت في النهاية بصمة واضحة كمدرسة متميزة في ميدان الصحافة اليمنية بتنوعها السياسي والثقافي وتنوع كتابها وتنوع موادها.

ولا شك أن استطلاعات (محمود ياسين) في نوافذ حول مختلف المدن اليمنية كانت أحد أهم مميزات

المجلة خلال فترة إصدارها الأول بين عامي ١٩٩٧م- ٢٠٠١م. ليس فقط لأن (محمود ياسين) كان ولا يزال في نظري قلما متميزا في لغته رائعا في أسلوبه نادرا في أحاسيسه واضحا في منهجيته قويا في حجته واسعا في ثقافته... ولكن الى ذلك فان تلك الاستطلاعات التي امتدت من صعدة شمالا وحتى حضرموت شرقا كانت مدرسة جديدة في فن الاستطلاع... وأتذكر جيدا انني التقيت مع الأخ الأستاذ حسين العواضي عندما كان يشغل منصب رئيس مجلس إدارة وكالة الأنباء اليمنية (سبأ) وهو يعبر لي عن إعجابه الشديد باستطلاع نشره محمود ياسين في نوافذ عن مدينة (اب) واخبرني انه وجه بنشره عبر شبكة الوكالة... ثم كتب لاحقا عن محمود مبديا إعجابه في إحدى يوميات الثورة التي كان يكتبها أحيانا بأسلوبه الرشيق... وأذكر جيدا- كذلك- ان استطلاعات محمود ياسين في نوافذ اغرت بعض الصحف بخوض نفس التجربة لكنها ورغم الجهد المبذول فيها فإنها لم ترق الى المستوى المتميز لقلم محمود ياسين وأسلوبه الفريد الذي يجعلك وأنت تقرؤه مشدودا من بدايته إلى نهايته وكأنك تشاهد

فيلما شيقا تم اعداده واخراجه بعناية... ناهيك عما يمكنك ان تضيف إلى ذهنك من معلومات تاريخية ومفاتيح لفهم الأوضاع الاجتماعية والثقافية في تلك المدن والمناطق... فإذا بك أمام مادة بانورامية شاملة مليئة بالحيوية وخفة الروح ورشاقة القلم واللغة الرصينة فلا تدري أتضحك أحيانا أم تبكي احيانا أخرى؟

الذين سيقرأون هذا الكتاب اليوم لن يدركوا المعاناة التي كنا نعيشها حتى تخرج كل مادة من مواده... وأنا شخصيا عانيت معاناة شديدة من بداية فكرة أي استطلاع منها حتى تسليم العدد للمطبعة وما بينهما كنت اخوض معارك طاحنة مع هذا الأديب الصعب محمود ياسين بدءا من توفير بدل السفر الخاص بالرحلة مرورا بمتابعة محمود أثناء رحلته للاطمئنان عليه خشية ضياعه وانتهاء بالمعاناة الأقسى والأمرّ المتمثلة بكتابة الاستطلاع ومراجعته عقب عودة محمود وهي- لعلم القراء الأعزاء- عملية ولادة قيصرية صعبة لكنها كانت دائما تنتهي نهاية سعيدة بخروج مولود جميل إلى دنيا الصحافة.

وبعد... فهذا محمود ياسين وهذه أولى إنتاجا ته

البديعة موثقة بين دفتي هذا الكتاب الذي سيشكل قراءة يمنية اجتماعية ثقافية هامة لا غنى عنها في نهاية قرن وبداية قرن جديد.

نصر طه مصطفى

صنعاء

٢٠٠٣/٧/٥م

حكايا طفل بين «رجاح» و«إب»

قرية أدركتها الشيخوخة ومدينة

تسربت الحياة من بين أصابعها

كنت قـد فـقـدت ذلك كله.. الريح والليل وأزير الرصاص ونباح كلبٍ وحيد في شتاء «رجاح».. حيث تتبعثر ما بين السور والسائلة قصاصات طفولة وخطوات كهول لايدرون من خذل الآخر..

إنها «رجاح» التي تشبه «ماكوندو» كثيراً.. لكن من يشبه «جارسيا ماركيز» الذي حولها إلى أشهر قرية في العالم؟

«مائة عام من العزلة» سيرة ذاتية لقرية خذلها الزمن الأخير عندما اخترع مجموعة من القتلى والقتلة والحزبيين و«المكفلين» الذين حملوا امتعتهم وتركوها وحيدة تعاني الأرق..

مرت الطائرة غير أن «الحمدي» لم يطل من النافذة ولم يقذف بالشوكلاتا على رؤوس الأطفال في عيد الثورة.. كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها إب.. زحام وموسيقى عسكرية وخطباء وثوار وجماهير وأجواء كفيلة بإذهان طفل قروي جلس ينتظر الحمدي.

انتهى كل شيء وامتد «شارع العدين» الترابي أمام القرويين ليعودوا من حيث أتو مخلفين وراءهم أتربة ومفارقات يعتبرهاأبناء المدينة غنيمة (عيد الثورة)

وهي خلاصة علاقة بين «ابن السكة» و«ابن البادية» على غرار «ابن البادية ضيل يلعب سَيكلْ ويقول دادح».. الخ

يأخذون ريالاتهم القليلة مقابل «شوط سيكل» أو علم ممزق أو صحن سلطة.. والذي لا يملك تكاليف الرحلة يحمل معه أكياس الفول الأخضر يبيعها بثمن بخس ويصرخ: «ثورة- ثورة يا عروبة» وفي مناسبة كتلك لن تعدم ابن عم أو ابن خالة قروياً نبيلاً يشتري لك «روتي» ويعيدك إلى أمك...

مرت الطائرة غيرأن الحمدي نسي موعده مع الأطفال.. عدنا إلى القرية مضمخين بالتعب والشغف ومتعة الاكتشاف نتسابق على اختلاق الاكاذيب. أما أنا فقد تجاوزتهم جميعاً فأكدت أنني رأيت وجهه يطل من نافذة الطائرة لدرجة أن «البرنيطة» كادت تسقط من رأسه.

وبعد شهور تَحلَق القرويون حول الراديو.. «قتلوا الحمدي» ولأول مرة يرى الأطفال دموع الرجال بكاء الرعية مقابل فرحة الشيخ.. و بدأنا نفهم ونشارك في الصراع الطبقي..

وبعد ربع قرن عاد الطفل، الذي كُنْتُه، يتلمس الأمكنة العزيزة بحثاً عن أشيائه الإنسانية الصغيرة..

وبعد ربع قرن ضاق ميدان الكبسي باعياد الثورة وامتد شارع العدين الى قلب الوادي وشاخت «رجاح» بعد أن غادرها الأبناء إلى ما وراء السور القديم وبقي الرعية يجثون عن الخلاص وكالعادة.. خذلهم السياسيون..

أصعد معي إلى جبل الشجاع.. تلة صغيرة حصلت على إسم اكبر من حجمها.. ظهرك إلى الشمال ووجهك إلى الجنوب حيث يمكنك الإلمام بتفاصيل إب الجديدة.. إذ أن علينا تأجيل إب القديمة والبدء من السوق المركزي وميدان الكبسي إلى شمالك تماماً.. أي أننا سنرتب المدينة الجديدة من الشمال إلى اليمين (كمن يكتب الإنجليزية) ذلك لأنك تقف على جبل الشجاع وهذا ليس ذنبي...

لا أحد يقول «السوق المركزي» إذ يكتفي الجميع بالمركزي.. أول سوق نشأ خارج السور ليستوعب القادمين من بعدان وحبيش والسحول.. المركزي حيث اللحوح والكراث والتمر والبقلاوة وكل ما من شأنه إسالة اللعاب.. ومع «بداية نمنمات الصبح» يقدم لك المركزي عدة بدائل للفطور.. تجرجرك قدماك خلف نكهة الكشت البلدي وربما تنتهي بك إلى صحن كباب ساخن.

المركزي لايقدم المقتنيات أو الاثار أو حتى الأواني المنزلية فهو يشبه مائدة كبيرة نبتت في خيال الأطفال.. كل ما فيه طعام أو مشروع طعام..

لازلنا في منطقة المركزي.. هذا المبنى الضخم هو مدرسة الشعب الابتدائية، لطالما حلمت بأن أكون طالباً فيها قبل أن تأتي المدرسة إلى القرية..

كنا نطل من فوق السور لنرى طلبة مدرسة الشعب يرتدون القمصان البيضاء النظيفة ويرددون «في ظل راية ثورتي». أجواء تدفعنا لكراهية «المعلامة» والحقد على «سيدنا» الذي يرغمنا على ترديد نشيد وطني يخصه وحده «غفر الله لك يا سيدنا ولوالديك.. أمين» كان يضربنا بمناسبة وبغير مناسبة... يسلخ جلودنا لأنها، ملكه (الجلد الأعلى لسيدنا).. وهكذا أنهيت جزء «عم» ليقيم أبي وليمة كبيرة ويتقبل التهاني وكأنني تخرجت من السوربون.

شارع ضيق يفصل بين مدرسة الشعب ونادي الشعب وملعب الكبسي والمقر السابق لنادي الفتوة.. ناديان رياضيان وملعب.. مثلث شطر إب إلى نصفين من أواخر الستينات وحتى وقت قريب.. وبما أنك من إب فعليك تحديد هويتك أولاً (شعب أو فتوه) كثيراً ما

انتهت المباريات باشتباكات عنيفة تتدخل فيها الشرطة وتتورط فيها شخصيات اعتبارية.

لازلنا على قمة جبل الشجاع نحاول اللحاق بتفاصيل إب الجديد من الشمال إلى اليمين..

هذا المنزل الكبير الذي يطل على السحول أحد معالم إب ما بعد الثورة. إنه منزل الشيخ محمد قاسم العنسي.. أبوابه مفتوحة على مدار الساعة لاستقبال الجميع من رئيس الجمهورية وحتى أفقر عابر سبيل. ذات مرة قام الحراس بإغلاق البوابة فكاد العنسي يطلق النار على حراسه قائلاً: بابي لايغلق إطلاقاً.

وإذا ذهبت لجلسة قات في مقيل العنسي فلا تتعامل مع الحاضرين وكأنك غريب أو ضيف فمعظمهم غرباء عن بعض وعن العنسي الذي لا يسأل أحد عن هويته أو سبب الزيارة مكتفياً بهز رأسه على سبيل الترحيب.. أما إذا ابتلاك الله بخفة الظل وكنت صاحب نكتة فالعنسي مستعد لفعل أي شيء يرضيك حتى لاترحل..

تدور حكايا الناس بين شوارع إب وتتناثر أزمنتهم على الشواهد ولا شيء يبقى.. وليس أمامي سوى الذكريات التي تصلح ضمن سيرة ذاتية لا تعني أحداً

غير أنني لا أجد إب إلا في ذاكرتي الصدئة وهكذا سأمضي معكم من بوابة العنسي إلى بوابة النهضة.. أشهر مدرسة في إب وأروع ذاكرة لكثيرين ممن تحولوا الآن إلى أطباء ومهندسين وعاطلين وساسة.

نادراً ما دخلت النهضة من هذه البوابة.. كنت أفضل القفز من السور كغيري من الحاقدين على الحصة الأولى، إذ لا شيء في هذا العالم أكثر سوءاً من الحصة الأولى.. ملعبٌ صغير لطالما جلست في أحد أركانه كلاعب احتياط في فريق لايغير لاعباً واحداً ويهزم في كل مباراة.. ومن يومها وأنا قابع في الاحتياط انتظر النهاية المأساوية.. صوت العلاّية لايزال يتردد بين الإدارة والمكتبة (ممنوع التأخير- كم غاب هذا الفاشل؟...الخ) العلاّية ليس مدير ثانوية فحسب.. إنه رب أسرة لا ينسى أبسط التفاصيل.. وهوحاكم سوق في مدرسة أدمنها المشاغبون حد ا لهوس.. تغير الطلبة فقط.. هاهم يتدافعون ويتندرون على بعضهم غير أنهم لا يشبهوننا.. ومن يشبه الماضي؟ يبدو التعب والهم على وجوههم رغم محاولاتهم ادعاء الشغب وكأنهم عمال مصنع في طريقه إلى الأفلاس.. وحده العجوز الطيب لايزال يقاوم انهيارات «الصندقة» ويقدم

الفاصوليا للأفواه المتزاحمة ولم يتعلم الفارق بين النقد والدين.. لايبحث عن المماطلين ويردد سامحه الله..

ما الذي تبقى من النهضة؟ ذهبوا جميعاً.. «ذي يزن» أصبح ضابطاً بشارب ضخم، وتوفيق سرقته التجارة، فيما نسي جمال المعادلة ناقصة.. أما البعداني فقد فتح ورشة في شارع فرعي لا يمر به أحد.. تزوجوا- ضاعوا- تفرقوا- اشتاقوا إلى أيام النهضة.. لاتزال تعليقاتهم الساخرة تتوهج على جدار الممر.. وفي أدراج الطاولات الخلفية بقايا من أسرارهم المحرمة.

تجلمدت أسماؤهم في سجلات المدرسة وتاهت وجوههم في ذاكرة العجوز الطيب بائع الفاصوليا ودّعوه على باب الصندقة ذات امتحان ظنوه الأخير- ذهبوا وبقيت لديه ديونهم... سامحهم الله.

لإب شارعان وألف زقاق.. لها المطر يغسل أشياء الفقراء.. وضجر المساء يلاحق الغريب.. لها الطل ورعشة الماء على إيقاع أنوثتها الفضفاضة.

إنها إب: فتاة طيبة فاجأتها ثلاثينات العمر وتسربت الحياة من بين أصابعها..

يمتد شارع العدين في قلب الظهار وعلى جانبيه

يتزاحم أبناء ضاحيتي حبيش وبعدان على اقتسام بقايا فرص كان يقدمها هذا الشارع.. اختنق شارع العدين بعد ميلاده بقليل، ليس عريقاً ولا مميزاً: محلات في طريقها إلى الإفلاس وورش تتآكل على عمر اصحابها وأكثر ما يؤرق هذا الشارع هو التغيير المستمر في محتويات الدكاكين الأساسية وهما السلعة والتاجر.. تتحول المكتبة إلى ورشة خراطة ثم معرض ملابس وبعدها سوبر ماركت وديون.. الخ.. فنادق لماذا ينتهي معظم التجار الصغار في شارع العدين بهذه الطريقة؟

تتجول في إب فتكتشف نظافتها الاستثنائية عن ماضيها وعن بقية المدن.. وبمجرد سقوط العلبة الفارغة من يدك يلتقطها عامل النظافة ويذهب.. نجح مشروع النظافة في إب بجدارة غير أن أصحاب المحلات التجارية يبدون تبرمهم من الرسوم التي يعتقدونها باهظة وغير قانونية يرددون: هذا جنون.. ندفع على الكرتون عشرة ريالات رسوم نظافة.. إنها جمارك إضافية.

لم يحدث للسياحة في إب ما يمكن إدراجه تحت مسمى انتعاش- ازدهار.. إلخ على كل ما يقال عن إب

الخضراء.. بمعنى أن هذه الفنادق التي تتكاثر لا علاقة لها بالسياحة، رغم أن لا فندق ينسى إضافة «السياحي» على لوحته الإعلانية..

وكأن الجميع اكتشفوا ميزة الفندقة في يوم واحد.. مردود كبير لايخضع لأسعار الصرف ومفاجآت السوق.. إذ لا سوق حقيقي في إب.. ويبدو أن للستلايت «الديش» علاقة كبيرة بالأمر بالإضافة إلى جنوح مجتمع إب شيئاً فشيئاً إلى تراجع البساطة في التعامل واحترام خصوصية الآخر.. ويمكن شرح الأمرين كالتالي:

قدم الستلايت قنوات يبحث فيها المراهقون والمكبوتون عن أشياء لا يمكن مشاهدتها في البيت فيقدم لهم الفندق هذه الخدمة.. أمَّا علاقة الفندقة بالعلاقات الاجتماعية فيمكن الحديث عنها من خلال القرويين الموسرين نسبياً.. تتطلب مصالحهم المبيت في إب فلا يحبذون التطفل على فراش أحد الأقارب كما كان يحدث في الماضي.. فلا يجدون أمامهم سوى الفندق..

أجمل ما يمكن لمدينة مثل إب أن تقدمه للضيف هو هذا الزرع الذي يحاصرها تماماً..

تجاوز ضاحية «ابلان» التي أصبحت حياً من أحياء المدينة وتسلق مرتفعاً صغيراً إلى قمة «جبل ربي».. بين أبلان وجبل ربي ما يشبه اللا مبالاة بين أفراد عائلة واحدة.

في أزقة أبلان نبتت هدى أبلان قصيدة عائلية طافحة بالخوف.. شاعرة تبحث عن الدفء بين شرشف أمها و«جبل ربي».. منتزه صغير وجميل يصلح لإعادة قراءة العلاقة بين الزرع والإسمنت.. «جبل ربي» يعني الهواء والبراح وأحلام الانفلات من قبضة أشياء كثيرة.. من هنا تحاول العينان ابتلاع وادي السحول مرة واحدة.. ويسترخي الاكسجين بعد رحلة طويلة باحثاً عن رئة صدئة يغسلها لوجه الله..

أتدرون..؟ إب أمكنة رائعة لغير أبنائها الذين ملوا خضرة غير مجدية، بعضهم يحلم بالصحراء أو ناطحات السحاب. أما الزرع فقد ارتبط في وجدانهم بـ«الذرة» وللذُرة علاقة بالفقر الحديث، ذلك أنهم ولدوا بعد أن فقدت الذُرة مجدها القديم أيام كانت عملة وحيدة للتداول. كانت تشبه النفط الآن كسبب رئيس ووحيد لتوزيع الجغرافيا السكانية.. التي اختصرها «علي ولد زايد» هكذا:

إن كنت هاربٌ من الموت
ما احَدْ من الموت ناجي
وان كنت هاربٌ من الجوعْ
إهرُبْ «سحول» ابن ناجي

ابن ناجي استبدل الذرة بالقات ليحصل فقراء الذرة على مداخيل كبيرة قلبت حياتهم من «سحوليين» إلى «مقاوتة» من فقراء مابعد الثورة إلى مشروع برجوازية صغيرة صنعها القات كمبرر لتدمير الأرض والإنسان.. وكأن السحول أخذ على عاتقه مقاومة الجوع بأكثر الطرق إيلاماً.. وللمرة الثانية قدم أبن ناجي سحوله للهاربين شرط أن يكونوا «مقاوتة».. لاتتفاءل كثيراً.. فالقات ليس قمحاً يصدره المزراعون من سهول كندا إلى بقية العالم.. قليلون هم أولئك الذين حصلوا على امتيازاته بينما يئن ريف إب تحت وطأة الفقر والإدمان، فمعظم المدرجات الزراعية لا تزال وفيةً للذرة التي تتطلب مجهوداً جَبّاراً.. ومردودها أقل من قليل».. ثقافياً: الذرة أفضل من القات.. وعملياً: القات أفضل بكثير من الذرة.

هـم فقـراء لايزرعـون القـات.. لا لأنهـم مـن أعـضـاء جـمـعـيـة مكافحـة القـات ولكـن مـدرجـاتهـم لا تصلـح لزراعـتـه.. لايجـدون مـا يشـربون فكيـف يسـقـون هـذه الشـجـرة (الحـل المؤقت والمستحيل)..

سـحـول ابن ناجي والذرة والقـات وتداعـيـات أخـرى وكـلام كـثـيـر تقـوله وأنت على جـبل ربي خلفك إب، وكليتـا تربيـة وهندسـة و مشروع جـامعـة استـولت على مسـاحـات مـهولـة يحـتـيـوهـا سـور بلا مـبـان حـقـيـقـيـة ولاتعـويضـات في حـدودهـا الأدنى لملاك لا يجيدون إطلاق النار..

إنها إب: تكرم الضيف بعشاء أطفالها.

لعب وادي الظهار الدور الأول في دراما إب الجـديدة من خلال قصف الزرع وانسحاب الفلاحين أمام أعمدة الخرسانة والسباق المحموم على اقتسام ارباح العقارات في سوق الظهار منذ بداية الثمانينات وحتى منتصف التسعينات خلال عقد ونصف من الارتفاع الجنوني للقصبة.

جزء كبير من الظهار كان يعود للاوقاف التي خضعت لما يشبه النهب المنظم على أيدي مجموعة من حمران

العـيـون الذين ادركـوا مـبكراً أصـول اللعـبـة ضـمن مجموعة أثرياء جدد صنعهم الوقف السائب.

استـفـاد العـمـال واصـحـاب المهن المعـمـارية من ورشة البناء تلك، غيـر ان الايام الاخـيـرة شـهدت ركوداً غـيـر مسبوق لعدة أسباب منها الازمة الاقتصادية وأخـرها النسبة الكبيرةالتي فرضتها المحافظة على كل عقار يباع ويشتري.. ويؤكد الكثيرون أنها تصل الى ٢٥٪ من قـيـمـة العـقـار مما تسبب في عـزوف الناس عن البـيـع والشراء ليجد الاف العمال أنفسهم بلا عمل.

الطريق الى «رجاح» تبدأ من «المنصوب» الذي كان في ما مضى «سد المنصوب» يسبح فيه القرويون ويسقون حميرهم.. عشرون عاماً تراكمت على السد لتحيله الى جامع وفرزة سيارات تحمل هؤلاء الذين سرق الطريق ذاكرتهم.

يمرون غـيـر مـدركين لمرور السنين.. الطريق الطريق والمسافرون فقدوا قدرتهم على البساطة والفرح.. كانوا رعية ومغتربين.. اصبحوا مكتئبين.

نصف سـاعـة الى الشـمـال الغـربي من إب وتنتـهي الرحلة الصغيرة في المجمعة (.. سوق الربوع).. من هنا تتوزع الاقدام بين اكثر من طريق تكاد تنتهي الى مصير

واحد.

عندما عاد «جابريل جارسيا ماركيز» الى قريته (ماكوندو) وقع في فخ الواقعية السحرية، حيث العزلة تتراكم على حياة القرويين المتخمة بالأساطير والدماء والخرافات الأكثر واقعية من اي شيء آخر والحصيلة رواية رائعة اسمها «مائة عام من العزلة» حصل ماركيز من خلالها على المجد والجوائز وتحولت «ماكوندو» من قرية نائية في ريف كولومبيا الى إحدى أشهر قرى العالم..

رجاح تشبه ماكوندوا كثيراً.. ولكن من يشبه ماركيز؟..

ماذا تبقى من رجاح.. تهدَّم السور وجفَّت الساقية وفقد «بن عبده يحيى» بصره غير أنه لايزال محتفظا بقدرته على السخرية.

ما بين بقايا دفء المساء.. ووحشة الليل على ايقاع المُدَرَّج والسائلة.. ورجاح تفصلك عنها هوة وطريق جانبي ضيق، بدأت وحشة الليل على هيئة ضوء سراج خافت في نافذة وحيدة.. بيت جدي لم يبق منه سوى نافذة خائفة والباقي مجرد ظلام صامت يشرخه عواء كلب عجوز يحشرج.. لكأنني وأشيائي القديمة خلف

نافذة بيت جدي.

لكأنَّ طفلاً يشبهني يقرفصُ الآن في الزاوية محدقاً في نافذة وحيدة توشك على الانخلاع أمام ريح الليل القادمة من كهوف الأبدية..

من أين جاءت كل هذه الوحشة لتحتل رجاح؟.. يخفت عواء الكلب ليمسي أكثر موتاً ويشحب آخر ضوء في آخر النافذة ولا ثمَّ إلاَّ أنا ورجاح وحيدين وبيننا هوةٌ وليل تؤججه الريح.

حفيف ثوب صلاةٍ ابيض لإمرأة مسنة على السطح.. قلبها الخائف يردد: «يا دافع البلأ..».

ليلة فاصلة لحساب عشرين سنة، قدمت لي قائمة بمخاوفي ودفعةً واحدة.. فأين أذهب. أوليها ظهري فأين أنامَ؟!

كيف أمر الى رجاح والبوابة مسكونةٌ بالدهاليز والجن؟ واذا نجوت من البوابة فبأي قلب سأواجه «أحمد علي مهدي» الجالس أمام بيته مقتولاً.. يعاتبُ الصامتين وآخر المارة امام جثته..

أذكر الآن أي طفل كنتُه.. «المجران» الذي أرهقه ركضي.. السائلة التي أنهكت ملابسي الوحيدة مقابل وجودِ قروي إنساني للغاية..

خالد ونجيب وعبدالرقيب والمرعي والرعيان والحمار الذي طالما دوخني بين حيدٍ وصخرٍ بينهما وحشة لذيذة تجتاح طفلاً يبحث عن حمار مشاغب طيب القلب.

أوّاه أيتها الأعشاب المثقلة بقلبي الذي كان.. عشرون عاماً منحتني صديقا واحداً وألف عدو.. عشرون عاماً بيني وبيني.. بين حياةٍ واحدة لا تكفي كل هؤلاء الموتى القابعين في دهاليز روح اثخنتها النكبات واستنزفتها محاولات الفرار البائسة..

أيها الطفل الذي كُنتُه، بيني وبينك هوةٌ يستحيل تجاوزها.. بيني وبينك شغفك وأوهامي.. ياذا الشعر الطويل المقصف.. ياصاحب الحياة الممكنة.

كم أحب أذنيك الكبيرتين ووجهك المضمخ بالطين والذهول القروي..

أتذكر؟ كيف كنت نابضاً بهمس الدهاليز؟ عابقاً بروث المراعي وأحلام الراعيات؟

كم هدّك التعب الإنساني وكم ناوشتك الشمس وأرهقك النقيل فعدت روحاً تتثائب على ضفاف قرية منسيّة.. حين المغرب يختبيء في المغاطس، يتسلل إلى زوايا المسجد ويتقاطر من لحية المؤذن تعود إلى بيتنا

لتحدق في السقف..

وجه أبيك المعلق في ركن المساء.. مجهداً تخنقه ياقة ضخمة.. يخبيء في عينيه وعوداً تحاول الفكاك من غربة شاسعة.. أمانٍ تتهادى على جناحي فراشةٍ تبشر البيت بأمنٍ وملابس جديدة.

جدتك نائمة فلا تصرخ.. كن حذراً وإلاّ اختطفك «أبوكلبة» يأتي مع بقايا المسا وحيداً يؤدب سهر الأطفال بذيله الطويل.. «ألا يانوم يانامي - يانوم جئ. وهات الفراش وهات الدفئ».

كم كان أبو كلبة ضرورياً للاسترخاء على تموجات «النوّارة» الدافئة.. عاد أبوك بالطاقيات البيض تقطر لحيته شفافية. أبي أنا لم يعد إلى الآن.. وأمّي نسيت حكايا المساء فسرقني أبو كلبة... ربطني إلى ذيله يجرني إلى خوف يولد كل غروب... حبسني في مدرسة وتسوّل بي في أسواق الأحزاب وعندما حاولت الفرار علمني استثمار الفجيعة وحولني إلى كاتب..

أيها الطفل القروي تشبث بأمك.. وقبل أن تنام قص عليها حكايتي.....

مـــــأرب..

ذاكرة الصرامة العريقة

لمأرب إيقاع أصالة قلقة، ونكهة صرامة تتحفز عبر آلاف السنين في انتظار كارثة.

وبين مكرب (سبأ) وشيخ (عبيدة) تاريخٌ عنيف وكثيف على هيئة حروب وكوارث وجنات تحترق شوقاً ورعباً إزاء سيل سيء المزاج.

إنها مأرب: سفر التاريخ وقصص الكتب المقدسة.. القبيلة التي تقف بين زحف الدولة وزحف الصحراء، ترفض نزع السلاح، وتحاول استثمار النفط والخراب القديم.

تعاقب عليها المكاربة والمشائخ والرحالة والمستشرقون والشركات والصحف، وجميعهم حاول اكتشاف العراقة المتراكمة الدفينة من خوذة المكرب (سمه- علي- ينوف) وحتى (عسيب) الشيخ مبخوت العرادة.

بمجرد أن يقال: مأرب.. كان خيالي يرسم مارب على هيئة كهل عملاق وعنيد يخترق السحاب بجنبيته الصدئة.. في عينيه نظرة ترحيب وتحذير وعلى كتفه تتحفز بندقية الجرمل المدهونة بالزيت..

وبين قدميه يتدفق النفط والماء على أطلال معبد وذكريات سد قديم..

أكثر من مئتي كيلو متر إلى الشمال الشرقي من صنعاء وعلى تخوم الربع الخالي كانت مأرب تنتظر.

ساعة من السير العادي على سيارة سبعينية عريقة إخترقت جبلاً قاسياً وأطلت بنا على سهل مفتوح وهناك مأرب قابعة بين السهل والصحراء العظيمة..

لا شيء غير القيظ والقحط في سهل قاحل يتوسطه جبل هيلان وبعدها تبدأ محافظة مارب..

نقاط عسكرية وملل جنود يشعرون بالظما والتوق الى غصن قات غير أنهم لم يعودوا قادرين على مضغ القات بالملابس العسكرية..

ليل العسكري

ثكنات مفزعة يطلقون عليها «دشم».. ثمة ثلاثة فتيان من مناطق مختلفة من اليمن قاسمونا السيارة العتيقة وحدثونا حديث الجندية في هذه الارض القاسية.. عن الحر والقر والوحشة والراتب الضئيل.. عن الحرمان والليل والعقارب.. وهم يرجعون السبب في منع تناول القات على العسكر الى ظنهم أنه وراء قلق العسكر وحالات الإنهيار العصبي.. بعد القات يحصي العسكري وحشته وعجزه وحرمانه وقريته البعيدة.. أحدهم إنتحر وبعضهم انهار.. وآخر ترك

(الدشمة) هائماً على وجهه في قلب الوحشة والظلام وعند الصباح وجدوه ميتاً بعينين مفتوحتين وقد اثخنته العقارب.. (ما أقسى ليل العسكري في أرضٍ كهذه)..

لازال الثلاثة يقصون بعضاً من حكايا الضياع والعجز ويتحدثون عن أمانٍ بعيدة ليس فيها ثكنات، إلى أن وصلوا التلة الصغيرة حيث تقبع كتيبتهم ومخاوفهم وغادروا السيارة ممتعضين.

هانحن نقترب من المدينة مخترقين سهلاً أسود حد العمى.. من هنا تمر أنابيب النفط القادمة من صافر.. انابيب وحيدة تسافرعبر صخور سوداء مدببة.. على هذه الصخور الفظة ترك الأب الضعيف بناته اليتيمات السبع إرضاءاً لزوجته الشريرة.. هنا ولدت تلك الاسطورة اليمنية التي ساعدت العجائز على مقاومة ملل الأيام الأخيرة.. الأسطورة اليمنية التي ظلت تجنح بين أفواه الجدات وتنهدات الأطفال وحافظت على عنفوانها كمسرحيَّة تتحدى الأيام.. وانقرضت في زمن الستالايت.

مأرب الجديدة

على هذه الأرض ينفجر الأنبوب ويضيع النفط..

استقبلتنا وكأنها فرغت للتو من استقبال صاعقة..

أوقفنا زحام الناقلات التي تحمل قطع غيار ضخمة تتجه الى حقول النفط.. الأطقم العسكرية تتزاحم على حراسة الناقلات وعلى أبواب مأرب كان الجنود يفتشون السيارات القادمة بحثا عن السلاح.. ظل العملاق في مخيلتي بينما فاجأتني مأرب الجديدة بخلوها من السلاح والرجال الشعث.. مأرب مدينة عادية كشوارع، نصفها أسفلت والنصف الآخر أتربة وزيوت وباعة متجولون.. كل المباني حديثة اذ تم تخطيط هذه المدينة بعد إكتشاف النفط..

ستحتاج إلى غداء وقات وماء وربما إصلاح سيارتك سيقدم لك أهل إب هذه الخدمات باعتبارهم يسكنون مارب الجديدة.

اسمع جملاً كهذه (كم تشته؟!، من فضلك، قات حلأ.. إلخ) كلمات ووجوه تذكرك بشارع العدين في إب. لاتوجد شوارع عريقة معروفة هنا ويسمون زحام البيوت والدوائر الحكومية (المجمع) ثم الشارع العام..

وشيئا فشيئاً بدأ المأربيون يظهرون على شكل بدو بثياب بيضاء خليجية.. معجونة بتراب مأرب..

تعرف المأربي من شعره الطويل الكثيف وسلاحه

الذي تسلل به من طريق آخر لايمر بنقاط التفتيش.. وجوهُ تقرأ فيها حرية داخلية وتحفزاً ما.. ونادراً ماتجد مأربياً يقبل السكن في هذه المدينة، لقد غادروا مدينة مأرب التأريخية المهدمة إلى الضواحي.. اما هذه الشوارع فيمرون بها مسرعين لقضاءحوائجهم ويعودون قبل الغروب إلى بيوت الطين الفاتح هرباً من المدينة والضجيج، تاركين مأرب الجديدة لأبناء إب وبعض من مهاجري تعز والحديدة الذين يكونون مجتمعاً جديداً في طريقه إلى النمو الإقتصادي وخلق ثقافة إجتماعية جديدة هي مزيج من عطاء إب وكفاح تعز وصرامة مأرب.

مجتمع المدينة

إستفاد هؤلاء الوافدون من جملة قناعات وأعراف راسخه في الثقافة الإجتماعية لأبناء مأرب الذين يمقتون مهنة (بياع).. وقبلهم استفادت شريحة إجتماعية مأربية تعرف باسم (القرار).. كان أبناء القرار وحتى مابعد الثورة بقليل يعملون في خدمة القبائل والأشراف ويمتهنون البيع، والحلاقة والجزارة.. ومع التحولات الإقتصادية التي بدأت في اواسط السبعينات وحتى نهاية الثمانينات حصد القرار أرباحاً

وفرصاً وتحولت اوضاعهم وحصلوا على علاقات مع بقية الشرائح.. علاقات ليست متكافئة لكنها أكثر ايجابية من الماضي..

إذ يتكون مجتمع مأرب من ثلاث شرائح رئيسية (الأشراف، القبائل، القرار) الأشراف (الهاشميين) يمتلكون ثقافتهم المحافظة التي تميل الى التدين والعلاقات الإيجابية مع بقية الشرائح.. رغم أنهم ليسوا (هجرة) كبعض الأسر الهاشمية في اليمن حيث أن الهجرة لايحاربون ولا يدخلون في تعداد المحاربين الرماة.. ويحصلون على الحماية من رجال القبائل..

أما أشراف مأرب فلديهم تاريخ عريق في الدفاع عن أنفسهم والأخذ بثارهم وحماية حلفائهم الضعفاء من أبناء (القرار).

الأشراف يملكون بيوت مأرب القديمة ومعظم الأراضي الواقعة في مديرية مأرب بما في ذلك الوادي الذي يتاخم السد.. يتزوجون من القبائل ولا يزوجونهم كعرف يقبله الجميع، بدون تذمر باعتباره عرفاً وليس حكماً شرعياً..

أما القبائل فيشلكون ٧٥٪ من مجتمع مأرب.. وأبرز القبائل في مأرب هي عبيدة ومراد مأرب والجدعان..

هذا الكلام الممل عن الشرائح والوعي الجمعي والتحولات لا جديد فيه إلا إذا انتظرتم حتى ما قبل نهاية هذا الإستطلاع لتقرأوا بعضاً من ثقافة القبيلة من خلال لقاءات بالشيخ والشريف والفتى المتعلم وخولة بنت الأزور التي تقود الهايلكس!.

وعموماً فمجتمع مأرب بحاجة إلى دراسة اثنوغرافية او أنثروبولوجيه أو أي مصطلح غريب يمكن من خلاله التحايل عليكم قرائي الأعزاء.. أو تقوم دار نشر تؤمن بثقافة (الهامبرجر) باصدار كتاب عنوانه: «كيف تتكلم الاثنوغرافيا في ثلاثة أيام».

إذ أنني وفي ثلاثة أيام حاولت اختزال مأرب في مصطلح هزيل وفي تمثال خيالي صارم لإنجاز استطلاع عن بلاد الحرية.. أقول الحرية لأنها الانطباع الحقيقي الذي عدت به من مأرب.

استقبلني الشريف مبخوت بن عبود وضيفني بزاد وراحلة حديثة. أسرني ذلك الرجل حقاً.. وحدثني بحذر عن مأرب وتاريخها وتكوينها الاجتماعي وسألته عن سبب كراهية أبناء مأرب للمدينة والمدنية، وكنت أعلم الأجابة مسبقاً فأضاف الشريف مبخوت الى معلوماتي بعض التفاصيل.. كإختيار ابناء مأرب

منطقة الحصون التي تبعد بضع كيلو مترات الى الشرق من مدينة مارب ملتقى وسوقاً.

لا احد يفتش عن الأسلحة في سوق الحصون.. ليس هناك عساكر ولا ضجيج، في سوق الحصون حاولت مأرب التاريخية تجاهل مأرب الجديدة.. ثم ان الحصون سوق قديم حصل على امتيازات جديدة بفعل محاولات الدولة إقتحام هذا المجتمع العنيد.

«السلام تحية»

ثمة سؤال لم يجب عليه الشريف مبخوت لانني لم اطرحه عليه أصلاً. وهو عن سبب ا عتناق المأربي أسلوباً مؤلماً في السلام والمصافحة، إذ وصلت مأرب وأنا في غنى عن التفكير في طقوس التحية والمصافحة، فأنا منشغل بمايدهش او باختراع ما يدهش.. وحين سلمت على ذلك العجوز الذي ظهر فجأة من خلف الشريف مبخوت، لم أكن أعلم أنه سيضع أنفه على أنفي ويضغط بعنف!، فاجأني تماماً.. وهم في العادة لايفعلون ذلك مع الغريب (أي وضع الأنف على الأنف وتقبيل الفراغ) وأنا الذي حاول معانقة الرجل فعانقني على طريقته الخاصة.. مع العلم أن معظم قبائل الصحراء في الجزيرة العربية تتبع ذات الاسلوب في

«السلام» من مأرب وحتى أم القوين في الإمارات العربية المتحدة، ثمة قواسم مشتركة أخرى من ضمنها التصحر والضغط بعنف على الياء في أخر الكلمة.

أمامك أربعة خيارات للمأوى في مأرب إما قبول دعوة الشريف للنزول في بيته أو فندق عرش بلقيس الذي يقدم لك خدمات كثيرة من ضمنها مخالطة السواح القلائل ومقابل ذلك يفجعك في أعز ما تملك وهي العشرة الاف ريال التي وصلت بها إلى هذه المدينة، أو (لوكندة) رخيصة تكتشف فيها ثقافة الحمالين والبؤساء وتحصل على معلومات خطيرة تصلح في دراسة مهمة عن مراحل تطور حشرات البق البيضاء والقمل الأسود قبل النفط وبعده.

أو تقبل التنازل عن الفي ريال في الليلة في فندق هادىء وتصميه رائع وغرفة نظيفة للغاية لكنه بغير ثقافة أجنبية فهو خالٍ تماماً من الأجانب والستلايت.. ولم يكن أمامي سوى البكاء على أطلال الألفين!..

من يعنيه امر الفنادق واللوكندات والقمل؟ إما من باب تقديم خدمة سياحية مجانية حتى لايذهب احدكم وفي نيته الحصول على نوم هادىء بسعر معقول.. بالإضافة إلى أنني كنت أحبذ لقاء سائح

واحـد على الأقل لأسـالـه عن سـبب مـجـيـئـه وعن انطباعاته الاولى.. اما لماذا هو سائح وحيد وقليل؟ فانا أعرف ان الاختطافات المتكررة وبالتحديد حادثة (ابو الحسن) التي ذهب فيها بعض السياح إلى ربهم.. هي السبب في ندرة النصارى القادمين الى اليمن، والى مارب التي تلهب خيالهم الاكاديمي.

ذرفت الالفي ريال وصعدت الى غرفتي وحيداً حتى من الجيران.. لا تلفزيون، ولا تليفون، ولا معلومات مأربية الى الآن، لا شيء البتة. هدوء وصمت يلف المكان لدرجة اكتشاف بعض الامراض الخاصة كالخوف من الأماكن الصامتة ومرض طنين الأذن.. ولاول مرة في حياتي اقف الى جانب مشكلات الاراضي والموت لأجلها.. إذ أنه لم يمض أكثر من ساعتين حتى بدأ اطلاق نار متقطع ينتشلني من التحديق في السقف ببلاهة! وفي الصباح أخبروني أن المألوف سماع مثل تلك الفرقعات الليلية التي تتحول في الصباح الى أمر عادي فيه جثث وارقام جديدة تضاف لرصيد الثأر العريق.

الطريق إلى مأرب القديمة ليس ببعيد، وعلى سيارة الشريف مبخوت غادرت نقطة التفتيش وبرفقتي

فتيان.. احدهما من عبيدة والثاني من الأشراف، الأول يستعد للإلتحاق بالجامعة، والثاني غادر المدرسة في الصفوف الاولى وكنت أظن العكس.. إذ أن الاشراف من بني هاشم عادة مايرتبطون بالعلم أكثر من القبائل.

العبيدي والشريف يختلفان في الشهادة العلمية واللقب، لكنهما يتفقان تماماً على أن المجد في افواه البنادق، لذلك لم الاحظ فارقا بين الإثنين.

«هذه مأرب»

اتجهنا جنوباً وبدأ السلاح المأربي يتكثف أكثر وأكثر.. بيوت تتناثر هنا وهناك مبنية من الطين الفاتح الذي أمتص اشعة الشمس وأحتفظ بها..

مزارع البرتقال ،والقمح تمتد على جانبي الطريق الجميل.. وأمام أطلال المدينة التي تشبه قرية كبيرة وقفت السيارة وقال أحدهما: «هذه مارب».. بيوت مهدمة بعضها يقف كنصف بيت، والآخر يكاد يساوي التراب.. ثمة بيوت قليلة لاتزال تقاوم الريح، وفيها اناس من إب أو من مأرب ذاتها يعيشون في قلب التاريخ والخراب.

هذه الأطلال تتراكم على ربوة كبيرة ويفسر أبناء مأرب وجود الربوة في سهل بلا روابي.. في أن هذه

المدينة الصغيرة جداً الخربة جداً قد بنيت وتهدمت وبنيت وتهدمت.. وهكذا تراكم الخراب على الخراب! فنشأت ربوة إستثنائية على ظهرها تصفر الرياح بين جدران الخراب الأخير..

وإلى الأسفل من الربوة يقبع (مسجد سليمان) التسمية جاءت من علاقة النبي سليمان بالملكة بلقيس كما ذكر القرآن الكريم..، المسجد عبارة عن جدران نصف مهدمة وأعمدة بيضاء ضخمة، على أسفلها نقوش وكتابات قديمة.. لايزال السقف متماسكا، ولاتزال مأرب تاريخاً طويلاً أنتهى إلى أطلال ونقوش ونفط وقبائل وسد جديد قبل ان تصل إليه عليك إسترجاع الزمن إلى القرن الثامن قبل الميلاد عندما بدأ المكاربة السبئيون الظهور في عاصمتهم صرواح، التي لم أذهب إليها عملا بنصيحة مأربي يخاف على رأسي ان يذهب في صراع صرواحي قبلي!

بنى المكاربة معابد لإلههم (المقة) وبنوا سدوداً انتهت الى طموح سد مأرب التاريخي.

ترتب على السد ثمار ونشاط ورخاء فبدأت مدينة مأرب تحتل أهمية صرواح.. بالإضافة الى تزايد ارباح تجارة اللبان في الجزيرة العربية التي أضافت إلى

مارب اغراءاً جديداً، فهي افضل من صرواح، لوقوعها على طريق القوافل كمحطة رئيسية في طريق اللبان الشهير القادم من الجنوب والجنوب الشرقي مروراً بمأرب وانتهاءاً بأسواق غزة في فلسطين، وهكذا تراجعت صرواح، وتنامت مأرب وبني المكاربة حولها الأسوار المنيعة التي لاتزال بقاياها قائمة الى الآن إما في مكانها أو كجزء من جدران بيت مأربي لايرى فارقاً بين حجر يعود تأريخه إلى سنوات وحجر آخر منقوش ونحت قبل ألفين وخمسمائة سنة مكتوب عليه إسم المكرب الذي أمر بنحته.... أحد هذه الأحجار يئن تحت وطأة روث الأبقار لأنه أصبح جزءاً من حظيرة.؟!

رائحة النبل

النقوش والتاريخ والخراب والزمن وأشياء أخرى تضغط على رأسي وأنا اغادر مسجد سليمان متسائلاً عن الفارق بين إهتمامات الأوروبيين وإهتماماتي.. أين هي وزارة الثقافة والسياحة من هذا كله؟ ترى: أي فضول علمي وأمانة تاريخية وروح تحدٍ دفعت بجلازر، وهاليفي وأرنو ليلاقوا احتمالات الموت في مأرب مقابل طلاسم التأريخ وتعنت الجغرافيا؟!

وبإتجاه الغرب نحو أطلال سد.. وتدفق سد.. كانت

المزارع والبيد تختلط ببعضها وتمتد على جانبي الطريق.. وجوه عربية في تقاسيمها إباء وترحيب متعال..

مساحات تغريك بالركض والرفض.. أفق يعبق بالحرية، وأخلاق الفرسان...

الأرض، والإنسان، والأطلال، والرمال الصفراء.. كل شيء يغريك بالجسارة والتفاؤل.. وعلى صحراء قلبي وبين نافذة السيارة والأفق البعيد مر تأبط شراً والشنفرى والسليك وعروة بن الورد.. إنني اسمع وقع حوافر خيلهم واشم رائحة العرق النبيل.. مروا وأثاروا خلفهم مشروع تمرد ومشروعية صعلكة.

هذه هي اطلال سد مارب إذاً.. يبدو الصرف الجنوبي للسد وكأنه بيت قديم (هذا اذا نظرت إليه من بعيد) أما إذا اقتربت فسترى القوة والذكاء في تفاصيل هذه الجدران حيث تتماسك الاحجار العملاقة من خلال القضبان الحديدية، ومن خلال الصرف الجنوبي كانت مياه السد تتدفق في الاراضي التي تصحرت الآن، رغم وجود السد الجديد.. (الرجيمات - حجر صوانة (وادي إذنة).

ثمة أسطورة تختبىء في مدخل الهوس الأيمن من

السد، وبالتحديد في (مربط القط) تقول الأسطورة أن المكرب السبئي أمر بربط قط عملاق في هذا المكان لإخافة الفأر الذي رآه الكهنةيقرظ اعمدة السد، ويحوله إلى كارثة.. وانتظر القط لسنوات مملة.. حتى جاء الفار الشرير مرتدياً فروة حمراء ضللت القط فلم يتمكن من معرفته وانتهت الحكاية بالغرق والشتات...

ركض الناس شرقاً وغرباً وتحولوا إلى مثل عربي عريق (تفرقت ايدي سبأ) وظل إسم باني السد مجهولاً حتى جاء المستشرق الألماني (ارنو) في أواخر القرن التاسع عشر، ومن خلال قراءته لأحد النقوش السبئية أكد أن المكرب السبئي (سمه علي ينوف) هو الذي بنى السد في مراحله الاولى.

لقد بُني السد وانهار اكثر من مرة، كان آخرها على يد أبرهة الحبشي.

ولايزال المأربي ينتظر الخراب الاخير.. وكأنه يسكن على ضفاف بركان أصيل. وعندما يرتفع منسوب الماء في السد الجديد، فلا يجد أبناء مأرب سوى تهنئة بعضهم البعض قائلين: (سيحملك السيل في رحلة إلى عمان بدون فيزا)..

بني السد الجديد إلى الأعلى قليلاً من أطلال السد

القديم على نفقة الشيخ زايد بن سلطان رئيس دولة الامارات العربية المتحدة.. وعندما تراه لأول مرة ستشعر بالرهبة فأنت تقف عند قدمي سيل عظيم يحتدم خلف الحاجز.. يقول الشاعر الشيخ محمد أحمد منصور:

قل للذين تشردوا وتغربوا.. عودوا فإن السد حيٌ باقِ

قد قام متكئاً على أطلاله...

وأطل مرفوعاً على الأعناقِ

فكانه الأهرام إلا أنه..

بحرٌ يموجُ بمائهِ الرقراقِ

بالفعل.. السد يشبه الأهرام إلا أن الذين تشردوا وتغربوا لن يعودوا أبداً..

وما حققه السد الجديد ليس كثيراً.. مقارنة بما كان ينتظره الجميع.

إذ يشكو الناس من الإدارة السيئة واحتجاز المياه لمدة طويلة.. والأهم من ذلك عدم شق القنوات التحويلية لعدة اسباب.. منها- إهمال الجهات المختصة ورفض بعض ابناء القبائل لمرور القنوات عبر أراضيهم- غير أنهم وافقوا بعد فوات الأوان..

وقد يذهب بعضهم لدرجة التأكيد بان السد الجديد

سبب التصحر في المناطق التي كان من المفترض تحويلها الى جنات.. ويؤكدون أن الأرض كانت اكثر اخضراراً مما هي عليه الآن، ومن هؤلاء الشيخ مبخوت بن علي العرادة)..

ويعد الشيخ العرادة من أبرز مشائخ مأرب، وهو ينتمي إلى قبيلة عبيدة الشهيرة.

وهو يرى أن قانون القبيلة لايتعارض مع الشريعة الإسلامية، وهو أكثر فاعلية من محاكم الدولة ودهاليزها.. وأسهب الشيخ في الحديث عن قانون العيب وحرمة الدم.. إذ لايجوز قتل الضيف الآمن والحليف ومن بينك وبينه صلح.. كما يحرم العرف القبلي، قتل الرجل في السوق أو اذا كان بصحبة إمرأة.. يمر قاتل ابيك امام عينيك فلا تتعرض له بسوء، لأنه يسير مع زوجته او ابنته حتى وإن كانت طفلة.

أما الذي يقطع السبيل، ويفجر أنابيب النفط ويحتجز القاطرات فيقول عنه الشيخ إنه متمرد على القبيلة، وعلى العرف وعلى النفط ويضيف (يعدهم رجال الدولة بالوظائف والمال، ثم يخلون بوعودهم فيلجأ هؤلاء إلى تفجير الأنبوب).

أما عن حزبية القبيلة فيختصرها الشيخ قائلاً:

(القبيلي مع صاحبه ولو تيهود) .

خولة بنت الأزور

هناك إمرأتان من مأرب: الأولى بملء القلب وأصالة الذاكرة حكمت قومها عن طريق (ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون).. بلقيس في وجدان اليمني تعني الإباء الملكي الجميل.

وقصة إمرأة ملكت وشاورت وكشفت عن ساقيهاو (أسلمت مع سليمان لله رب العالمين).. إذ لا قبيلي يحاول التملص من بلقيس ذاكرة وتجربة وأنثى غير أنه يمتعض أمام ذكرى الصرح الممرد والساق الملكية المشكوفة والحائرة وقد يحارب إذا ما أصر الأشقاء الفراعنة على سرقة ملكته بلقيس وتحويلها إلى ملكة فرعونية اسمها حتشبسوت!

أما الثانية فهي فتاة مرقت من جوارنا وهي تقود الهايلوكس المصقولة وكأنها خولة بنت الأزور، تمتطي ظهر مهرة بيضاء جلبها ا لفاتحون من بلاد الفرنجة!..

مرت إلى جوارنا شامخة لم تلتفت.. إذا دارت بك الأيام وساء طالعك وزرت مأرب فربما ترى هذه الفتاة.. انصحك بعدم الذهاب بعيداً والتفكير بطريقة غير أخلاقية فالكلاشنكوف إلى جوارها مصقول ومتحفز

وسيحولك رصاص خولة الى غربال؟!

تجارة النقوش

كنت مشغولاً بمحاولة تفكيك التاريخ وإعادة تركيبه، والخروج بتفسير لأرتال الأحداث التي تراكمت عبر أكثر من ثلاثة آلاف سنة ومطلوب فعل ذلك كله خلال ثلاثة ايام.

تحدث القرآن الكريم عن سبأ وسيل العرم وتحدث المؤرخون العرب عن مأرب بما يشبه المقالات.. إذ لا نقوش قُرأت ولا حفريات اخضعت للدراسة كما جاء في الاكليل مثلاً.

وربما تكون محاولات آرنوو هاليفي وجلازر والدكتور فخري وفون فيسمن وجام والبعثة الامريكية من خلال فك رموز بعض النقوش هو الممكن الوحيد لقراءة تاريخ مأرب عن طريق تتبع تاريخ الدولة السبئية في مأرب.

غير ان النقوش التي تمكن العلماء من قراءتها بعد العثور عليها ومحاولة ترميم اجزائها، لم تف بالغرض.. اذ أن موطن السبئيين الأصل ظل إلى الآن محل خلاف وغموض، ومراحل تطور الدولة وتاريخها يعانيان من فجوات وهناك أيضاً علاقة حضارة سبأ

بالحضارات الأخرى كالآشورية والرومانية كما جاء في بعض كتابات تعود الى هاتين الحضارتين.

(الحروب والزمن وتجارة النقوش) بعض من أسباب تلك الفجوات في التاريخ السبئي.. بالإضافة إلى عدم اهتمام السبئيين بتدوين التاريخ على النقوش.. ظل المأربي وحتى ماقبل ثورة ١٩٦٢م.. بقليل يغادر مأرب يحمل جمل من النقوش والآثار الى صنعاء او عدن ويعود حاملا القاز والسلاح والثياب والطعام.. بعضهم كان يلجأ إلى تفتيت النقش كي يبيع كل جزء على حدة.

يقول الدكتور فرتز هومل: إن السبئيين بدأوا تاريخهم الحقيقي خارج اليمن ويقترح (و. ف. البرايت) العام ١٢٠٠ ق.م تاريخاً لهجرتهم إلى مأرب..

ولعل نقش النصر الذي أشار إليه (أرنو) وكان يقوم في معبد (المقه) الكبير بصرواح هو الذي اضاء أمام الباحثين والعلماء الطريق إلى معرفة بعض من تأريخ سبأ.

وفي العام ١٩٤٧م قام الدكتور فخري عند زيارته لليمن بتصوير النقش ونسخه ولاحظ ان أحد جانبي النقش كان يقع داخل حظيرة للمواشي،

والجانب الآخر وسط المكان ومعرض لعبث الناس.

ويرجع المؤرخ محمد عبدالقادر بافقيه من كتابه (تاريخ اليمن القديم) أهمية النقش إلى أنه اقدم نص طويل يصل إلينا ويحفظ لنا اسماء مناطق كثيرة، ويعيننا على تكوين صورة واضحة عن الوضع في المنطقة من القرن الخامس قبل الميلاد.

يتحدث نقش النصر عن المكرب (كرب إل وتر) الذي أصبح ملكاً بأمر الآلهة التي أوحت إليه بملكه لـ«المقه» وسبأ يوم أن وحدت الشعب.. وبعدد ما تقرب به إلى عشتر والى «هوبس» ثم يشكر الألهة التي جاءت بالمطر ويصف الأعمال الزراعية التي قام بها.

وينتهي النقش بوصف الحملات والحروب التي خاضها الملك ضد المعافر وأوسان ودهسم.. الخ وفيه تسجيل لأرقام الأسرى والغنائم التي ترتبت على حروب الملك مع بقية اليمن.

ومن خلال النقش يخلص (بافقية) الى عدة مسلمات منها تمتع ذلك الملك بالسلطتين الدينية والزمنية والخراب الذي لحق بالأرض والإنسان من جراء تلك الحروب وسيادة العقلية الإقطاعية عند ذلك الملك.

تمتع السبئيون بمُلك شبه مطلق على أرض غنية خصبة فأزدهرت الحياة في مأرب وفي بقية الأراضي التي كانت تقع ضمن حدود دولتهم التي تمر عبر أراضيها قوافل البخور واللبان والمر... نظام ملكي إقطاعي يقوم على السلطة المخولة من الآلهة وتحفظ بقوة (قبيلة) الملك كما جاء في نقش اخر يتحدث عن إصلاح الملك لمسايل المياه حول (تمنع) وإعطائه لـ(ولدعم) كل مدنهم لأنهم حالفوا المقه والملك وسبأ.

وفي العام ٣٤ ق.م حاول الرومان غزو مأرب بقيادة إليوس جالوس وتعاون معهم الانباط في ذلك.. وفشلت الحملة الرومانية بعد قتال مرير دام ستة أشهر.

ليس هناك ماهو اسوأ من ثلاثة آلاف سنة عليك ابتلاعها وتحويلها إلى ركن من أركان (استطلاع) وعليه ينبغي زيارة عرش بلقيس والنظر اليه من خلف الأسلاك الشائكة التي وضعوها لمجرد منعي من سرقة الاعمدة المهيبة وفلسفتها والبحث عن نقش لن أفهم منه شيئاً لأنني لست باحثاً ولانه لم يعد هنام مايمكن قراءته في هذا المكان..

أما معبد الشمس فثمانية اعمدة تحاول الرمال

ابتلاعها أمام عيني صحفي يحدق من خلف الاسلاك ويتساءل عن سبب لتسمية المعبد بـ(المقه)؟!، والمقه ترمز للقمر مع أنه معبد الشمس.

تركت العرش والمعبد ومررت بمعاصر زيت السمسم وتعاطفت مع الجمل الذي يدور وعيناه معصوبتان لأنني أشبهه في الدوران القسري واللانهائي!، وانتزعني من ذلك كله وجه الشيخ علي بن ناجي الصلاحي أحد مشائخ قبيلة مراد التي يطلق عليها ابناء مأرب وصف (حجرية مأرب) لأنهم الأكثر علاقة بالوظيفة العامة والسياسة والتعليم مثل حجرية تعز.

حدثني الشيخ الصلاحي عن دور مراد في الدفاع عن الثورة والجمهورية وعن علاقة الريبة والشك بين الدولة ومراد، وعن مأرب التاريخ والإنسان.. والشيخ الصلاحي مثقف حقيقي، عرفته من خلال حوار قصير، وعرفت في الأخير أنك ستفشل في معرفة مأرب مالم تنفذ تعليماتي بدقة:

قف بين مأرب الجديدة ومأرب القديمة بعد نقطة التفتيش بقليل، ضع على ظهرك جهاز طيران يشبه ذلك الجهاز الذي يستخدمه ابطال افلام الخيال العلمي، ظهرك الى الشرق ووجهك إلى الغرب، أنت

الآن معلق في فضاء مديرية مأرب، أغمض عينيك واسترجع ثلاثة الاف سنة متخمة بالحروب والمطاردة وانهيارات السد المتلاحقة وفي خيالك ستهاجر النقوش بطريقة غير شرعية وستلمح هاليفي وأرنو وجلازر وبقية المستشرقين وهم يعانون في فك طلاسم التاريخ السبئي.. تداخلت في ذاكرتك الأزمنة ومر الى جوار انفك هدهد يحمل رسالة وعاد يحمل عرشاً.

انت الآن في اواخر القرن الثامن عشر تلمح رجلا بشرته حمراء وعيناه زرقا وان وينادونه ياحاج حسين لاتصدقه رغم ملابسه المأربية إنه جلازر المستشرق الذي قرأ النقوش السبئية وحاول ردم الفجوات التاريخية وفر بجلده خوفاً من القبائل الذين اكتشفوا أمره وإتهموه بالبحث عن ذهب الملكة تحت ركام التاريخ.

إفتح عينيك الآن وأنظر الى الأسفل ولنبدأ حسب الترتيب:

تحت قدمك اليمنى يتدفق النفط من حقول صافر ويحترق الغاز ليلوث البيئة ويلحق الأضرار بمزارع البرتقال والسمسم، اذهب بعينيك بعيداً لتشاهد المهربين يروضون الصحراء بسيارات (الشبح) غير المرقمة كما هو حال معظم سيارات مأرب، وباتجاه يدك

اليسرى إلى الجنوب إبدأ من الأعلى إلى الأسفل: السد الجديد ثم أطلال السد القديم مزارع البرتقال والقمح ثم مأرب القديمة والعرش والمعبد ومنزل الشيخ ميخوت العرادة وفي الجهة المقابلة تحت يدك اليمنى ينبعث لغط وتدور مبايعات وينمو مجتمع في مأرب الجديدة.

أما في الوسط تتبعثر بيوت الطين المأربية والمزارع والتصحر ثلاث دوائر انتخابية يحتكرها التجمع اليمني للإصلاح في محافظة تعداد سكانها يتجاوز المئتي ألف نسمة بقليل.. إهبط إلى مكانك الذي انطلقت منه وإرحل فوراً عن مأرب وعندما تجتاز ثلثي الطريق إلى صنعاء ستجد ثلاثة فتيان من قبيلة ما يبحثون عن أبناء قبيلة أخرى.. سيدفعك فضولك الصحفي للتدخل.. إياك أن تفعل وإلا اختطفوك...

الحديدة..

أوجاع المدينة المسالمة..؟

الطريق إلى تهامة

لا تحاول عد المنعطفات حتي لاتتقيأ علي الراكب أمامك!..

فالطريق من صنعاء إلى الحديدة يشبه امعاء بغل!.. وإذا نظرت إلى الخلف فستجد جميع ركاب الباص وقد انقلبت سحنة وجوههم باشمئزاز جماعي وكأنهم فرغوا من ابتلاع جرعة ملح انجليزي.. أي طريق لعين هذا؟

ولأن المصائب لا تأتي فرادى فقد انهمك إثنان من الركاب في تجاهل مشاعر الغثيان وراحا يستعرضان ثقافتهما القبلية، إذ لم يكفا عن حديث الثأر والمحدش والزامل وكأننا في الطريق الى جحانة وليس إلى الحديدة حيث السلام المجاني والبؤس والبحر والدراجات النارية..

جبال تخبيء الخوف، وجن طاعنون في الشر يحملقون من وراء الطبيعة. وإخضرار شجيرات متوحشة لاتوحي بالعطاء والأمان الأخضر. الباص يتزلق وكأنه يحاول الإفلات من قبضة الجبال..

ومن خميس بني سعد تنبعث روائح الأسواق البدائية وايماءات ما بعد صلاة العصر.. ونكهة الجبن البلدي.

هذا هو وادي سردود إذاً.. فيه ماء وزرع وموز وجرار ماء وغاسلات ثياب.. لايجف ماءوادي سردود طوال العام وهوأحد أهم أودية اليمن التي تصب في البحر الاحمر.. غير أن مردوده لايكاد يكفي هذه التجمعات الزاهدة البخيلة.

ومن (باب الناقة) بدأت تهامة في التدفق على هيئة عشش وأجساد مشققة وبدأت رياح البحر ورائحة التعب..

حاولت رؤية جمال عبدالناصر على قمة الجبل الذي يلي باب الناقة بقليل.. غير أنني فشلت مع أنهم أكدوا لي وجود تلك الظاهرة حيث تتشكل تضاريس القمة على هيئة وجه عبدالناصر.. وما ذنبي أنا ربما يكون الفاعل هو عوامل التعريةوالتحولات العنيفة فتخلى الجبل عن أحلامه القومية وأصبح بلا ملامح.

عادت وجوه الركاب تحاول إستعادة ملامحها الطبيعية إذ بدأت المنعطفات البغيضة في التلاشي وافضى بنا الطريق إلى أول حاضرة في تهامة، إنها باجل التي كانت بالنسبة لي تعني المصانع والقول السيء وذكريات لزجة لصديقي جمال أنعم..

هذه هي مداخن مصنع الإسمنت الشهير ومصانع

المعلبات في مدينة شحيحة.

ذات زمن سخي، تقاطر عليها كثيرون من أبناء اليمن بحثاً عن استرخاء غير مكلف وغير مجد.. إذ كانت باجل محطة تجارية في طريق السعودية القديم.. حرض.. جيزان..

وفي شارع صنعاء أول حكايا باجل الحاضرة الجديدة التي أنشأها الرصيف الأسود وشيدها الطارئون.. ركام من الإسمنت، لو كندات، ورش، وزيوت، وكسل، ومشروعات كانت، وحياة توقفت بتوقف العربات وأحلام ظامئة تهاوت على أشلاء الرصيف الملتهب.

منهم من افلس وانتهى الى سجين وآخر (قرح فيوز) أو (قطع جواز).

أدرك الآن سر النحس المقيم على رأس صديقي.

وكأني به يطل من فوق كوبري النيل عندما كان يدرس في القاهرة، يطل بأنفه المعقوف وينشد بصوته القمىء:

ماتيمتني في الكنانة غادة
بل تيمتني في تهامة باجلُ
لم تنسني إياك مصر بحسنها
أبداً ولا شغلتني عنك شواغل

فلأنت في عيني الملاحة كلها.. ولأنت في عيني الجمال الكامل..

أين الجمال وأين جمال وأين وأين باجل..! ربما تجعل الغربة من الوطن خلاصة الجمال لكن المقارنة مجحفة بحق قاهرة المعز لدين الله.

ومع خروجك من باجل لن تعدم صوتاً يردد المثل الشهير (لايدخل باجل إلا تاجر أو فاجر أو عاصي والديه) أدري الآن أي هؤلاء.. كان صديقي..

ولن تعدم أمنية اللحاق بالشمس ومشاركتها نشوة الاسترخاء على وسائد البحر..

يمتد الطريق غرباً وعلى جانبيه تسيح الإقطاعيات بيذخ.. مساحات شاسعة وأسلاك وحدود بين مستثمرين ورجال أعمال ورجال دولة.

بعضهم حصل على إقطاعيته كهدية أو مكافأة ماقبل نهاية الخدمة وآخر بوضع اليد.

أو اشتراها من أولئك الذين وقعوا في فخ بنك التسليف وأقساطه المرهقة فباعوها بثمن بخس.

هذا التجمع البائس إلى يمينك إسمه (القطيع) اهم معالم القطيع هو مصنع والكندا دراي، كأحد أقدم مصانع المياه الغازية في اليمن.

حاول نسيان الإقطاعيات والكندا دراي، فهاهي المراوعة مدينة العلماءوالشعراءوالمساجد التي أصبحت الآن مدينة القات الشامي واللحم المندي والأوبئة المستوطنة واصداء مواويل (امكتحل).

وامكحتل ليس خرافة ولا فلكور، لا شاعر بلا ط، ولا صعلوك فاتك..

هو موال طويل وحزين على هيئة فنان أعمى يقود فرقة عميان متجولة، أحدهم يعزف على الناي واخر يضرب على الدف في حين يقود (امكتحل) فرقته على إيقاع (تنكته) الشهيرة.. الأعمى الرابع يحمل الكرتونةالتي تتجمع في قاعها قروش (السميعة).

وهكذا كان صوت امكتحل يشرخ قلب الجدب والتجهم وتردد الذاكرة موالاً كسيراً:

(سبأة جداية أدو.. وامخلف جدى امزهرة).

ما أروع أشجانه الكحتلية وأمانية تجاه حبيبته (أم إيده) يتمنى أن يكون قلادة على صدرها أوحماراً تركب عليه:

(ياليتني دبلولو.. شدير بصدر أم إيده

ياليتني جحبوُر. تركب أليًا أم إيده)..

صدمة البحر

وكالعادة وصلت متأخراً أحدق ببلاهة (ذات الشعور الذي يدهمك عندما تصل مدينة ساحلية لاينتظرك فيها أحد).

تصدمك الحديدة بلا مبالاتها تجاه تشريفك الكريم.. بنكهة البؤس وعطن الحياة التي أكلتها ملوحة البحر.. بحشود متسولي المحطات وبحشرجات الدراجات النارية.. أنا الآن أمام فرع البنك المركزي ولا تسألني عن شوارع الحديدة وأحيائها فأنا متعب ووحيد وقد نسيت ما يثبت هويتي في صنعاء.. لا أحد سوى البحر ينتظرك في الحديدة.

يسمون هذه المنطقة (الكورنيش).. ليس فيها شيء غير الفلل وأنا والبحر.

تشعر أن الفلل تهمس.. تمارس ترفها بهدوء من يخشى تطفل المتسولين.. كأن فيها أصحاب الجنة «إذ أقسموا ليصر منها مصبحين...» هذه هي الحياة ثري ومتسول وبينهما غريب يبحث عن سبب وجيه لقدومه.

البحر في المساء يوحي بدنو الأجل. وفرجينيا وولف كانت محقة تماما ولذلك إنتحرت (بالفعل: إنه همس الموت أمام دمدمة البحر الأبدية..).

تشعر بخوف لذيذ يجتاحك الفقد وتذكر الأحبة الذين ماتوا والأحبة الذين سيموتون.. توغل بعيداً لترى الغرقى والزوارق الحائرة المنهكة.. تتذكر الأمير الذي ابتلعه البحر وهو يحاول إنقاذ صديقه (البدر بن الإمام يحيى حميد الدين).

في المساء يفقد المسافرون مرافئهم ويستعصي البحر على الترويض.. من السخف ساعتها الحديث عن أشياء مثل (عروس البحر الأحمر- يمخرون عباب البحر- السمك اللذيذ- الميناء والبضائع والأرصفة- الحاويات- طيور النورس- القبطان) في المساء يعود البحر إلى ماقبل عشرة آلاف عام كائناً عملاقاً غامضاً يعاني الأرق..

وممارسة الأرق في أحد فنادق الحديدة تعني خمسة آلاف ريال وبطاقة شخصية وكلاهما مستحيل.. والنوم على الساحل مجازفة غير مأمونة.. إذاً تسكع في انتظار معجزة.

وحيداً على الرصيف

أما هؤلاء الذين أستباحهم الرصيف فحكاية أخرى، ينامون كيفما أتفق لأن ليس لهم مأوى وينبغي أن يناموا.. أحدهم بنى لنفسه بيتاً بلا سقف يتكون من

البلوك التألف والكراتين التي تحتفظ بأشهر الماركات العالمية.. التقط الصور والعجوز يستعد للنوم على الرصيف بجسده المعروق ونظرة الأستسلام المريع في عينيه التعبى، ولد وحده وتألم وحده ونام على الرصيف وحده وكذلك سيموت وحده كما فعل أحد جيرانه قبل شهور، اذ طلع الصباح على عجوز ميت في حضن الرصيف، لم يعرفوا له إسماً ولا وطناً مات بغير هوية ولم يعدم من يهيل عليه التراب بينما ظل البحر يهدر والسفن تفرغ الحاويات والدراجات النارية تزعق، وأتى المساء فاحتل عجوز آخر ناصية الرصيف في انتظار موت اعتيادي..

لا أدري عن أي مكتب كان يتحدث ذلك الشاب.. قال إنه سيأخذني إلى المكتب لأنني التقط صوراً فوتوغرافية تسيء لسمعة الوطن..نظرته باردة كغيره من رجال الأمن الخاص الذين يرتدون ملابس مدنية أحدق فيه وأنا اتذكر قصيدة (المخبر) ليوسف الشحاري التي كتبها في الستينيات.

قلت كلاماً كثيراً من ضمنه (مهنتي- نوافذ- بؤساء) والخلاصة انه يهذلني وانطلق بدراجته النارية مسرعاً كمن تذكر موعداً هاماً..

أنا لا أبكي لانه قهرني.. لكن لأنني مثلهم بلا مأوى، أوربما بسبب ضغوط نفسية وهزائم قديمة حولتها الحديدة إلى موقف إنساني.

سيكولوجيا الحديدة

اهل الحديدة طيبون بؤساء مسالمون، يحيون يومهم بعيداً عن احتمالات الغد وأشياء أخرى جئت بها من صنعاء، وتأكد لي أن الأحكام المسبقة على الأشياء ليست عادة سيئة دائماً.. فالحديدة رغم لامبالاتها إزاء الوافدين إلا انها تفعل ذلك بيأس الفقير الذي لم يعد يأبه للآخرين.. وعلى كلٍ فالحديدة تشبه أطفال العالم الثالث تماماً في بؤسهم ولا مبالاتهم.. في قدرتهم على إثارة المشاعر الإنسانية.

شاي بالحليب، فول، فته، صيد.. هكذا عشاء رطب يشبه المباني الرطبة والاجساد المهدودة..

تسمع كلمات ما أنزل الله بها من سلطان، كلمات فيها وهن وطيبة قلب.. ومن بين طلاسم كثيرة سمعت إسمي وإسم «نوافذ» من خلال حديث شابين يبدو عليهما مظهر خريجي معاهد التعليم العالي للمعلمين..

سمعت ذلك بوضوح، ورغم أنني كاتب مغمور فقد

تذكرت ماقاله تشيخوف عن الأسماء المعروفة التي اخترعوها لتحيا بعيداً عن أصحابها فها أنا مقهور ووحيد لا أملك فعل شيء سوى «زيد واحد شاهي حليب» بينما يتجول إسمي في الحديدة خالي البال كسائح من الدرجة الثانية.

وتلك هي سيكلوجيا الحديدة.. وعدواها النفسية.. اذ تتفنن هذه المدينة في تفجير آدمية الوافدين إليها.. تحولك الحديدة إلى حزن.. تتذكر كل الإهانات التي لحقت بك منذ زمن.. تقصيرك تجاه زوجتك وأطفالك.. مخاوفك ونقاط ضعفك،، كل ما من شأنه دفعك إلى الإنحياز الى كل ماهو ضعيف ويتيم.

وكأن المدينة قد يئست من أبنائها الذين فقدوا القدرة على الإنحياز.. وامسوا كاليوجاويين لايغضبون، ولايحبون، ولا يكرهون، ولا يخافون الغد كماأنهم غير آسفين إزاء الماضي، فلا تجد الحديدة سوى الوافدين لتمارس عليهم ضغط شحناتها العاطفية وتحيلهم الى بلهاء في بؤرة الألم.. إلى أن أتي عبر الهاتف صوت مفضل إسماعيل غالب.. الذي انتشلني من متاعبي بروحه المرحة الكريمة.. ما أروع مفضل.. فقد نسيت بصحبته كل متاعب المساء.. ومفضل مذيع سابق

وشاعر ومثقف موسوعي.

حساب التاريخ

تقع الحديدة على بعد ٢٢٦كم غرباً من صنعاء.

وهي طفلة بحساب عمر التاريخ فنشأتها تعود الى القرن الثامن الهجري (حسب الموسوعة اليمنية).

بدأت كمنطقة صيد ويقال أن إسمها جاء من إسم إمرأة كانت تعد القهوة والعشاء للصيادين.

في العام ١٤٥٥م بدأت تستقبل السفن أيام مطاردة الجراكسة للسفن البرتغالية دفاعاً عن سواحل البحر في عهد عامر بن عبدالوهاب الطاهري.. وقد غزاها المصريون في عهد الجركسي قنصوة الغوري.

ثم إتخذها الأتراك قاعدة للانطلاق الى بقية مدن اليمن إبان العودة الثانية لهم في عام ١٨٧٢م، ومالبثوا أن بنوا أول رصيف لاستقبال السفن عام ١٨٨١م.

تعرضت أكثر من مرة لنيران مدافع الإمبراطوريات المتصارعة على البحر الأحمر، فقد قصفتها مدافع الأسطول الإيطالي في العام ١٩١١م مناصرة للأدارسة.

وكذلك فعلت المدافع البريطانية بأحياء الحديدة في الفترة مابين ١٩١٥م و١٩١٩م.

وفي عـام ١٩٢٣ تسلمـهـا مـحـمـد الإدريسي من البريطانيين ومـالبث الإمـام يحيى حـمـيـد الدين أن انتزعها منه في نفس العام لتدخلها القوات السعودية في العام ١٩٣٤م. كنتيجة للحرب اليمنية السعودية.. مستغلة الخلاف وعلاقة الشك بين إمام صنعاء من جهة وهادي الهيج (رجل تهامة القوى في تلك الأيام) وأحمد فتيني (قائد الزرانيق) من جهة أخرى. اللذين تخليا عن الحديدة نكاية بالإمام.

لم أحاول تملق الحديدة التي لم أجد فيها مايدهش.. صباح قلق رطب يتململ على أرصفة شارع صنعاء الذي يشبه شوارع صنعاء في بقية المدن اليمنية. محلات تجارية وجولات ومتسولون ودراجات نارية.. أحيانا تتجمع الدراجات بأعداد هائلة في انتظار إشارة المرور، وما إن تعطيهم الضوء الأخضر حتى تزعق عشرات الدراجات بتوقيت واحد يصم الأذن.. وفي ذات الجولة يتكاثر المتسولون وتتداخل زعقات الدراجات بتوسلات العجائز بالرطوبة فتتحول الجولة إلى بؤرة استفزاز لا ترحم.

واللافت أن معظم الدراجات الناريه في الحديدة مرقمة ومن ماركة واحدة.. وإلى جوارها تمر عربات

الحمير.. والعربة التي يجرها الحمار.. ذات جدوى اقتصادية متميزة.. إذ تجد الحمار يجر عربة بأربع عجلات وحمولة سيارة نصف نقل، وعموماً فأسعار المواصلات في الحديدة رخيصة وفي متناول الجميع فالسائق في الحديدة يشكرك مقابل مبلغ زهيد ولا يتبرم إطلاقاً.

ولاأحد يتبرم في الحديدة إلا أنا، نادراً مايتشاجر السائقون في الزحام أو الموالعة في سوق القات، الناس هنا مسالمون رطبون واعمارهم طويلة.. تجد سيارة وقحة وقد خنقت الشارع الضيق وتراكمت السيارات الأخرى من الجانبين ولا أحد يحتج أو يشتم..

سوق الهنود

أفضى بنا هذا الممر الضيق إلى سوق الهنود.. وسوق الهنود كغيره من اسواق المدن القديمة، دكاكين ضيقة وأطفال مشاغبون وكهول مملحون يعدون الأطعمة على الاواني الفخارية، ورائحة التوابل التي تزكم الأنوف أكثر مما تسيل اللعاب، ربما استوطن أول مهاجر هندي هذا السوق مؤسساً لهجرة متقطعة نقلت معها شره التوابل والتصالح مع الواقع والسلبية الهندية العريقة.

وفي العام ١٩٥٢م تعرضت حارة الهنود لامتحان قاس للغاية.. فقد ابتلع البحر معظم منازلهم في ظرف ساعات ولم يتبرم أحد.

الناس هنا راضون يمضون يومهم على أساس مبدأ السلامة واللحظة والآن وهم خير من يمثل قول الشاعر:

مامضى فات والمؤمل غيبُ.. ولك الساعةالتي أنت فيها.

بساطة في التعامل وبساطة في الملابس والأحلام.. تلمح البساطة التهامية في اللهجة والتعامل والملامح والدراجات ومغاسل الملابس التي تتبع ذات الأسلوب البدائي حيث تمتد حبال الغسيل على جوانب الأزقة حاملة (المقاطب) والفنائل البيضاء الطيبة.

أجمل ما في الحديدة هي حديقة الشعب التي تقع في قلب المدينة.. مساحة خضراء طرية في قلب العطش الرطب.. (هل هناك عطش رطب؟!).

تمثل حديقة الشعب ملتقى ومفراً واسترخاء مجانياً، وغالباً ما تحرص وسائل الإعلام على إبراز حديقة الشعب كصورة نموذجية للحديدة.

أدور في شوارع المدينة ولا أدري من أين تبدأ

خريطتها ولا أين تنتهي..

فها أنا في باب مشرف أزاحم الباعة المتجولين وعربات الحمير في محاولة لألتقاط صورة لكشك خشبي يصدح بأحدث التسجيلات الأسلامية (خطب- محاضرات.. الخ) أنا بالطبع لم أستأذن من الشاب قبل التقاط صورته داخل الكشك فكان ذلك كافياً للدخول معه في اعتذارات مطولة ذلك أنه يرى في الصورة تجسيداً أو تمثيلاً (حرام)!

الحادثة عاديةغير ان الملفت فيها ان الشاب تعامل معي بطريقة بعيدة تماماً عن أدب العلم ووقار التدين وسماحته.. كان فيه غلظة لم ارها في أي تهامي..

أدور في أزقة المطراق بحثاً عن الدهشة وأصداء التأريخ فلم اجد شيئاً.. ثمة عجوز يعرض علينا قائمة بأسعار (المقاطب) التي يصنعها بيديه كمهنة تهامية عريقة.. ومن ألفين إلى سعبة الاف ريال تتراوح الأرقام بين الألوان الكلاسيكية واغراء العودة بمقطب تهامي.. واغراء العودة بمقطب تهامي.. والمطراق سوف قديم ربما جاءت تسميته من ضجيج المطارق أو من طرق الأحذية على الأعقاب.. عل حد اعتقاد (الشميري) دليلي السياحي في الحديدة الذي كان يفسر الأسماء

بطريقة جميلة.

أين ذهب ناس المطراق وتحف وهدايا المطراق.. إذ لا شيء سوى الملل في المطراق، بالإضافة إلى طرقات شبشب متهالك يرزح تحت وطأة عجوز في أواخر الستينيات تتسول في المطراق..

كل شيء يتآكل

ومن ضيق المطراق إلى رحابة البحر كل شيء يتآكل ومن ضيق المطراق الى رحابة البحر تتكرر الأصوات والوجوه حتى يتشلك البحر بأفقه وقدرته على العطاء.

إنها مهنة أهل الحديدة.. الصيد وما يترتب عليه من صناعة الزوارق وشباك الصيد.. هاأنت في (المحوات) تجد رائحة الحديدة التي كنت تشمها منذ طفولتك.. نكهة السمك التي اختطلت برائحة الخشب ا لمتهالك.. ضجيج البيع والشراء يختلط بأصوات المطارق والمثاقب في حوض صناعة الزوارق البدائية.

هنا تولد الزوارق وهنا تموت وتبعث من جديد.. ومن هنا تبدأ صباحات الصياد وتنتهي أمسياته.. مقابل السمك والزرقة اللانهائية يلتهم البحر الزورق والإنسان.. حتى الحديد يتهشم في ا لحديدة.. كل

شيء. كل شيء.

المباني والأرصفة والاسفلت والسيارات والظهيرة.. كل شيء يتآكل.. أما مستشفى العلفي فقد قضم الإهمال والملوحة جزءاً كبيراً منه بينما ظل أهل الحديدة يعملون ويمرضون في بقية أجزائه الآيلة للسقوط.

في هذا المستشفى وفي العام ١٩٦٠م قام ثلاثة من ضباط الجيش بمحاولة اغتيال الإمام أحمد حميد الدين وتمكنوا على الأقل من إقصائه عن جبروته وسطوته...

(محمد العلفي- عبدالله اللقية- محسن الهندوانه..)

لو كان الملازم العلفي يعرف أنهم سيطلقون إسمه عى خرابة فلربما غيَّر خطته واستبدل المستشفى بقلعة الإمام..

الحديدة تزحف بسرعة بإتجاه الحداثة العمرانية.. شوارعها نظيفة الى حدٍ ما وبالتحديد في منطقةالكورنيش حيث تقف الفلل مصفوفة أمام البحر بشكل مستقيم استعراضي وكأنها تستعد لاستقبال رئيس دولة.

هذا الحي يعادل الحي السياسي في صنعاء، ففيه

استراحات رجال الأعمال وفللهم ومقار بعض الشركات.. في هذا الحي نظافة وذوق وحرص ارستقراطي بغيض.

جحيم السلخانة

كي تعي جيداً ما فعلته حرب الخليج الثانية أنصحك بالذهاب الى الشمال الشرقي من مدينة الحديدة.. هناك ستغرق في (السلخانة).. والسلخانة ليست حياً شعبياً ولا مدينة جديدة وهي بالطبع ليست قرية وليست حزام صفيح.. هي خليط من كل ماهو مؤسف. تجمع للناس والزنك والبؤس والأتربة والقهر.

الجميع ينظرون بفضول إلى السيارة التي تمخر بنا أتربة شارع صدام.. وشارع صدام طويل وعلى جنبيه تتزاحم بيوت الزنك وإطارات السيارات والشعارات الحزبية والأطفال ذوو العيون البريئة والأجساد المشققة.

إجتاح صدام الكويت واختلط النفط بالدبابات بالتحالفات ودفع هؤلاء ثمن الحرب دفعة واحدة..

عادوا من الخليج ومن السعودية بثيابهم وبأطفالهم وفقرهم ولامبالاتهم وتجمعوا في (السلخانة) وخلدوا الرجل الذي لمع إسمه في الكارثة وأطلقوا إسمه على

شارعهم الوحيد.

يصهرهم الزنك في الصيف وينامون مع المجاري والوحل في الشتاء.. لقد سلختهم السلخانة من كبرياءهم وشعورهم بالآدمية والمواطنة.. وفي بيئة كهذه تسقط الحدود بين قيم الخيروالشر بين الضعف والقوة، بين الإنسان وإطار السيارة.

أطفال بلا مستقبل يتمرغون في حاضر لعين.. فتيات في عمر الزهور يتعرضن لأبشع أنواع الاستغلال..

يموت الموت في السلخانة وتفقد ا لقيم دلالاتها.. أحد المصلين لمح طفلاً يسرق حذاءه فغادر المسجد وطارد الطفل حتى السلخانة وعندما أمسك به سألة عن سبب امتهانه لسرقة أحذية المصلين، فأجاب الطفل بهدوء أن أمه هي التي تحرضه على سرقة الأحذية والروتي والخضار والملابس المستعملة، اكتشف الرجل أن الطفل يعول أمه وأخواته الثمان (تفضح الأسمال من أجسادهن أكثر مما تغطي).. قالت الأم: هل أبيع أجساد بناتي؟ ليس لدينا خيار سوى أحذيتكم يا (مطاوعه).. تعرفون بقية القصة.. حيث يتأثر الرجل ويعطيهم مما أعطاه الله..

رجل آخر وقف بعد الصلاة في نفس المسجد صارخاً: من أراد الزواج مجاناً فليمدد يده الآن.. فلدي خمس بنات لا أملك ما أطعمهن به.. فلا تتركوا بناتي حتى يأكلن باثدائهن.. ياقوم هولاء بناتي».

السلخانة إدانة للسلطة والأحزاب والشعراء ورجال الأعمال.. إنها كارثة اجتماعية وفضيحة سياسية بحجم حرب الخليج..

يحتشد الأطفال أمام الكاميرا بشغف طفولي يمزق نياط القلب.

ويتذكر كثيرون قصة رجل عاد بزوجتيه (يمنية ومصرية) وبأطفاله وفقره.. كان يعمل في السعودية ووضعه المالي جيد حتى حلت الكارثة وعاد ليستقر في السلخانة، ولم يحاول فعل شيء.. شجار بين الزوجتين لا ينتهي والأطفال غير قادرين على نسيان الملابس النظيفة والأيسكريم وزملاء المدرسة، فخلدوا إلى الصمت.. أكثر من عشرة أطفال لايفعلون شيئا آخر غير الصمت.. حاول التصالح مع وضعه الجديد كغيره من العائدين وكغيره من أبناءتهامة الذين تصالحوا مع وضعهم كموهبة لايملكها سواهم، عاش الرجل وأسرته علي فتات موائد رجال الخير وأمل واهن بوعود ربما

تتحقق، وتعويضات قد تأتي.. وذات ظهيرة متوحشة عاد إلى أسرته بعينين منكسرتين وجلس مستندا إلى حائط الزنك الملتهب وحدق في أطفاله قليلاً ثم مات بحسرته..

وقبل مغادرتنا للسلخانة أوقفنا أحد سكانها متسائلاً:

هل أخذتم إذنا من الشيخ قبل التقاط هذه الصور؟ هذا هو ماكان ينقص السلخانة.. الشيخ

مأساة الزموح

ورغم أننا لا نزال في مارس إلا أن الحرارة بدأت تتصاعد وكأن فصلاً يلاحقها.. المراوح لاتكف عن الدوران والمكيفات تهدر دون انقطاع مما يتسبب في أم مشكلات الحديدة (بالنسبة للموظفين على الأقل).

المكيفات في الحديدة تشبه الولايات المتحدة الأمريكية (شر لا بد منه).

فما إن يتسلم الموظف راتبه حتى يذهب إلى مكتب تحصيل الكهرباء ليدفعه كاملاً مقابل التهوية..

الموظف الشريف في الحديدة إما أن يموت اختناقاً أو يموت جوعاً... وعلى كلٍ فمعظم الموظفين في دوائر الحديدة هم من خارج الحديدة بينما يعمل أبناء

المدينة في الصيد ومتطلباته أو حمالين في الميناء وبعضهم حالفه الحظ في التجارة أو مهاجرين حزانى منكسرين.. طيور غريبة ضائعة خلدها الشاعر علي عبدالرحمن جحاف في رائعته التي غناها ايوب طارش.:

وطائر امغرب

ذي وجه سن امتهايم

قلبي ظناه أم أذاب

سقم أشي اسايلك

وأخوأم طيور أم حوايم

إلى ان يقول:

يدأس على أمزرب..

يتجشم سموم امصايب

من آف إيشه بلاده..

سيَّب أمزهب وامودي

وحوش امزرايب

وخيمته وامجآده.

ماأكثر الشعراءفي الحديدة، وماأكثر الشجن.. أصوات من هناك وهناك تشد حزن بعضها البعض.. أسئلة وحسرة وإيقاع كهولة جافة. التصاق بواقع لزج

يدفع بإتجاه الحلم بالطيران.

لذلك تجد الطيران والطيور نموذج الخلاص في النفسية التهامية.

الطائر الباحث عن الخضرة والخصب. أنا لست معنيا بترجمة قصيدة الحديدة غير أنني مسكون بايقاع الشجن التهامي.. أشعر بقصيدة عبدالهادي خضر وقد حولتني إلى (زمُّوح) مخلوق بين الطير والحشرة إنه (حشرة طائرة) باحثة عن أحلام طرية:

ما هدً بك

زموُحنا في ديار أمشوك

وأنته طريقك مفارق

دربها مسلوك

زمُّوح وادي امشجن

ما آدفيه خضرة

قد شلها أم دردوك

لصق حيثها امشرجي وامقفره وهز (أم مخدمين) قر

قل له إذا جزع

يقل لمطير

أشُه بيد امحنش

وآنه آليه مش حير

إلا بوابل يهب

يرسله لمدير

والشوك هيَّم هني

ويعود أُش امطير

ما أسرع ما أنهكك الركض خلف الزرقة اللانهائية للبحر..

الركض في البؤس وزحف الصحراء..

تذكرت قصة قديمةعن طائر الجبل وطائر البحر الذي حاو ل كل منهما إغراء الآخر بالهجرة إلى موطنه.

فشل طائر البحر في التأقلم مع الجبل وضاق طائر الجبل بالحياة المالحة وملل البحر.. حيث لا غصن يتكئ عليه القلب..

ليتني أعود يا حضرموت

وتظل الغربة.. هي الغربة

الكهل الذي رحل منذ زمن بعيد كان مراهقاً حمل امتعته واعتلى الموج بحثاً عن المال والاستقرار خلف المحيط. ولايزال يفعلها. ولم يعد بعد.

بلاده واسعة، وتاريخها مزدحم بالأنبياء والسلاطين.

إنها حضرموت الإنسان المدني.. حضرموت القبيلة الأولى أم إنها بن الملك الذي تحدث عنه الكتاب المقدس؟

هكذا استقبلتني حضرموت

واخيراً اقلعت البوينج الصغيرة من مطار صنعاء، وكأي طفل فرح لأول مرة كنت شغوفاً وخائفاً في آن واحد، فليس من بدائل غير الموت. التزمت بأهداب النوافل التي بثت بعض الإطمئنان في نفسي (صيام- قيام الليل- حفظ القرآن) وبعد خمسين دقيقة من الطيران وجدتني اقف في أرض مطار الريان وبدأت اتنصل في الأرض مما كنت التزمت به في السماء قائلا لنفسي: ماشاد احد الدين إلاّ غلبه.

قبل هبوط الطائرة بدقائق رأيت المكلا من الجو، كان

منظرا مدهشاً، مدينة بيضاء معقوفة تخالها مدينة كاميلوت الأسطورية، بياض المدينة وزرقة البحر. إنها شيء لم يسبق لي رؤيته، جبل صغير يحمي ظهرها وخلفه عمران جديد مبعثر وغيرمتجانس ورمادي ايضاً. اقول لنفسي ماذا يحدث في الداخل؟ تجاوزنا سماء المدينة وماهي إلا دقائق حتى هبطت الطائرة.

غادرت المطار و بدأت أبحث عن تليفون لأخبر أحدهم انني وصلت بسلامة الله. رغم علمي أنه لايعنيه بأي حال وصلت.

وعدت لابحث عن سيارة تقلني إلى المكلا. كان السائق شديد سواد الوجه، شديد بياض الثياب. لكنه رفض التحرك إلا بستة راكبين يدفع كلا منهم مائة ريال. حاولت دفع النصف والباقي عليه فرفض. قلت: أدفع إجار خمسة راكبين وواحد عليك فرفض أيضاً. ولأنني في عجلة من أمري كعادتي فقد دفعت الإجار كاملاً. هؤلاء الناس يعرفون جيداً قيمة الريال ولذلك تحوّل المهاجرون الحضارمة الى أباطرة إقتصاد.

الشمس ترسل ماتبقى لديها من أشعة لتمر على رؤوس النخيل وبعض المباني. والسيارة كأنها تلاحق زمنا سيفرُ من بين إطاراتها.. (هذه هي الديس) قال

السائق الديس تعني الدُغل. عمارات تتحدث عن برجوازية غير متذوقة، بناءعشوائي ودكاكين وأتربة ثم لاشيء..! انحدرت السيارة الى طريق يمر بخليج كريه (إنه خليج البلاعات) له جسر يربط بين ضفتي الخليج ليصل بين الديس والشرج التي يسمونها مدينة العمال. وخلف الجبل باتجاه البحر تختبيء المكلا، إذاً هذا هو الجسر الذي سقط عليه قتيلين وبعض الجرحى اثناء إحدى المظاهرات.

ثمة لجنة لتقصي الحقائق شكلها مجلس النواب عادت من هذه المدينة باشياء كثيرة إلا الحقائق لم تعد بها.

انعطف السائق شمالاً لندخل المكلا من شارعها الوحيد، ليست كما رأينا من الطائرة - تبدو متجهمة وقلقة- شارعها الرئيسي مزدحم بالسيارات والوجوه غير متجانسة.

كان إسمها الخيصة (أي مرفأ الزوارق) عمرها قصير جداً. كانت مجموعة أكواخ للصيادين حتى منتصف القرن السادس الهجري- وعندما عاد الشيخ يعقوب بن يوسف من بغداد مع اولاده مرض في عرض البحر واختار الخيصة لينام فيها إلى يوم الحشر. اصبح قبره

الآن مزاراً يتبرك به أبناء المدينة الذين جاءوا إليها من كل مكان. مدينة ساحلية تحتضن الثقافات والسلالات وتحاول صهرها في بوتقة واحدة.

وتحاول أيضاً صهر جمجمتي بحراراتها الشديدة وأسئلتها المعقدة وفنادقها المرتفعة الأسعار.

عدت إلى الديس بعد المغرب لأجد غرفة أفر اليها من أشياء كثيرة. سعرها يهز ميزانية البنك المركزي فما بالك بميزانية متشرد مثلي، الغرفة كانت ضريحاً ملكياً رائعاً. تكييف يعمل جيداً وتليفزيون يفصلني عنه بعض السنتيمترات وسرير يكفي نصف نزيل، أهكذا تستقبليني يا حضرموت؟ لا يهم..

بين الكادح القديم وليلين حضرموت

غادرت الفندق في الصباح وتوجهت فوراً من الديس الى الشرج لأبحث عن العمال في مدينة العمال.

لكنني التقيت بأحد الشغيلة والكادحين القدامى.. الرصيف بيته والأشياء القديمة غير الصالحة للاستعمال بضاعته.. يتسول على الطريقة الاوروبية حيث يبيع الكهول أشياء حقيرة كنوع من التسول المؤدب، المسكين يغني أغان شبابية مشهورة- البائس كان يبيع الولاعات العاطلة ويبيع صورته القديمة التي

كان يأسر بها قلوب العذارى. الكهل الذي يتسول ويغني كانت له «مشاهرة» ولايدري لماذا لم تعد لديه مشاهرة ولا يدري أيضا أنني بكيت لأجله واشتريت منه ولاعة حزينة. كان في عينيه اسئلة واسف ومحاولة للتشبث باي شيء، انه بلاد تحاول فعل شيء أي شيء حيال كل شيء. كان بائساً وكان اسمه سعيد..

أفضل مصدر للمعلومات هم سائقو التاكسيات القديمة، عادة مايكون السائق في خريف العمر يرتدي فانلة بيضاء نصف كم، ويجلس خلف مقود السيارة الى اليمين. كيف حالك يا أخي؟ فيقول الحمد لله. وابدأ طرح أسئلتي التقليدية لأعرف أن هذا الرجل نال تعليماً وسطيا وأن الأسعار مرتفعه وخصوصاً قطع الغيار، وأن الشعب واحد لكن الرشوة منتشرة والنظام غائب يتكررون دائماً. لكن الذي لفت انتباهي هو أن معظم الناس تعلموا في المدارس العامة ومدارس مكافحة الأمية.

الحزب الاشتراكي محى أمية الكثيرين اذ دخل الحزب ايام إنفراده بحكم هذه البلاد في معركة على جبهتين: محو الهوية ومحو الأمية. أخفق الحزب في الأولى ونجح في الثانية.

واقفاً كنت في ساحة قصر القعيطي الذي أصبح فيما بعد متحفاً.

إنه إلى اليمين في أول الشارع الوحيد الذي تملكه المكلا.

كان إلى جواري أحد الطلبة العائدين من روسيا (لم يجد عملا الى الآن) وصحفي شاب إسمه أنور الحوثري- دؤوب هذا الحوثري.

أشار الحوثري بيده نحورجل في أوائل الثلاثينات من العمر قائلاً: هذا حسين باصالح مدير مكتب الثقافة ومنظمة حقوق الانسان. شعره طويل بشكل ملفت للغاية ماركسي عتيد وسابق كانوا يدعونه لينين حضرموت.

ضيفني باصالح بربطة قات وقنينة مياه معدنية تحدثنا كثيراً فكلانا من النوع الذي يقول كل مالديه في اول لقاء.

من غوغول والرواية التي خرجت من معطفه الى مسرح العبث واللا معقول الى هوجو والبؤساء وأحدب نوتردام.

عن أدب الحرب وحرب الانفصال- عن باصالح الذي أعلن توبته من جريمة الانفصال رسمياً.

رائعاً كان باصالح وممزقاً أيضاً. ليته يعذرني عندما رأيت فيه اشياء من لوحة الامثال لبيتر بروغل حيث الشخصيات التي تقدم على أشياء غير معقلنة وعبثية أيضاً ((رجل يسبح ضد التيار واخر يبذر قمحة في مهب الريح. ناهيك عن الجالس بين مقعدين خاليين وذلك الذي يعترف للشيطان. وفي مساحة أخيرة من اللوحة لمحت حسين باصالح حيث المراةالتي تسير خلف زوجها العجوز وتحاول تغطية عينيه بمعطفها الرمادي وكأنها تحاول إخفاء فضيحة لم ترتكبها)).

صنع با صالح لنفسه زوجاً عجوزاً وافترض فضيحة لم يعد يذكر تفاصيلها.

(بدون أنانية السياسة وعنف التحولات، وبغير مأزق المثقف التي يعيشها باصالح كغيره، كان بإمكان الماركسي السابق صديقي الجديد أن لايقع في حالة انعدام الوزن).

قرأت في عينيه تاريخا مكثفاً من مخلفات التجريب واختزال الإنسان.

تكمن مأساة باصالح في أنه لم يكن يملك خياراً آخر منذ رحيله الى موسكو وحتى التوبة الرسمية.

بعض الرفاق الروس يناقشون الآن عرضاً قدمه أحد

رجال الأعمال الأمريكيين باستثمار جثمان لينين المحنط عن طريق التجول به في بعض معارض العواصم الغربية.. مقابل الكثير من الدولارات، وهكذا يقدم لينين روسيا آخر مالديه للنظرية.

فماذا سيصنع البرىء لينين حضرموت؟

من دائرة المعارف الى المتحف المنهوب

ومن (لينين حضرموت) إلى (دائرة معارف حضرموت) كان الطريق قصيراً إذ أن حسين الجيلاني يتناول القات على بعد أمتار منى ومن حسين باصالح. رحب بي وأفسح لي مكاناً الى جواره في المقر الرسمي لمنتدى الخيصة الثقافي الذي يحتل الجناح الأيمن من قصر القعيطي.

يتذكر الجيلاني أدق التفاصيل عن حضرموت التاريخ والأعلام، ذاكرة جبارة وطريقة عرض مغرية- إنه دائرة معارف بحق.

فمن صراع كنده وقبيلة حضرموت إلى الإسلام إلى،،، حتى قال: وباختصار هذه بلاد إنسانها مجرد تدين وهجرة. ولذلك جاء أصحاب اللحى وورثوا تاريخ التراكم الروحي والاجتماعي لإنسان حضرموت... غير أننا لم نسمع منهم على الأقل ولو مشاريع

نظرية.. السبب الآخر هو أنهم أدركوا سر الإنسان الحضرمي.. يتحدث الجيلاني امام اسئلتي المتلاحقة التي تشكل في الأخير سؤآلا واحداً- من اين جاء الحضرمي الآن؟

يا إبني أنت بحاجة إلى دراسة متكاملة في الانثروبولوجيا حتي تحصل على ماتريد (هكذا قال الجيلاني).

الحضرمي في الساحل جاء من زواج التثقافات والسلالات ومن الشعور باكثر من وطن وتعلم أن يتأقلم مع الأوضاع الجديدة لانه اقل شعوراً بالانتماء.

أما في حضرموت الداخل فالإنسان ميراث تدين وهجرة.. وطغت عناصر الشخصية المتدينة على كامل حضرموت.

الكلام السابق كان وثيقة للتفاهم وقعتها أنا والأستاذ الجيلاني كمحاولة لصناعة إجابة ما عن أسئلة كثيرة حول الهوية والروح الجماعية والحضرمي الآن.

الجيلاني ماركسي سابق- ترك النظرية في أواخر السبعينات وفي عام ١٩٩٠م أسس منتدى الخيصة الثقافي الذي يقدم الكثير من خلال الندوات

الأسبوعية في الأدب والفن والفلسفة والتاريخ.

ويصدر المنتدى نشرة رائعة غنية بالمادة الأدبية اسمها الخيصة. صافحت الجيلاني مودعا لجلسة المنتدى وللجناح الأيمن من قصرغالب القعيطي الذي أصبح مقراً لمنتدى الجيلاني الرائع الذي يسميه رواده بـ«هايدبارك» أما الجناح الاخر من قصر الجمعدار السابق والسلطان اللاحق عوض القعيطي ذلك اليافعي الذي هاجر ضمن من هاجروا الى حيدر أباد في الهند.

وأصبح جنديا في جيش حدير أباد ثم.. ثم.. برتبة جمعدار على وزن حكمدار وخازندار.

وبينما كان الجمعدار في حيدر أباد كان الكساديون الذي يحكمون حضرموت الساحل بحاجة الى من يحميهم من أطماع الكثيريين الذين يحكمون حضرموت الداخل إذ بدأوا بتهديد المكلا عسكرياً.

استعان الكسادي بالقعيطي وفق شروط مسبقة بجزء من السلطة وبكثير من المال.

وتمكن الإثنان من دحر جيش (الكثيريين) واحتلال الشحر عسكرياً.

بدأ الجمعدار يتصرف كسلطان آخر وبدأ الكسادي

يشعر بخطورة القعيطي. إقتتل حلفاء الأمس وانتصر القعيطي على السلطان الضعيف لينفرد بحكم حضرموت الساحل ويؤسس السلطنة القعيطية. ومن ثم إبرام معاهدة صداقة مع بريطانيا عام ١٨٨٨م وينال من بريطانيا لقب سلطان بدل جمعدار عام ١٩٠٢م.

القصر نموذجاً للقصور الهندية، بناه السلطان غالب القعيطي عام ١٩٢٥م، أبيض ومهيب، يقع الى اليمين من أول الشارع الذي يدخلك الى المكلا ويطل على البحر. أصبح متحفا منذ رحيل القعيطيين عام ١٩٦٧م. رائحة السلطنة التي تخيلتها كثيراً. بعض الآثار القديمة غير المنظمة في الدورالأول، ثم سلم ملكي فخم يفضي الى الدور الثاني الذي يحوي صور السلاطين بشواربهم الطويلة وأنوفهم الشامخة.

وهنا كان السلطان يجلس على كرسي من الفضة الخالصة. وهناك ملابس ذات الطابع الهندي الخالص. وملابس نسائه وأولاده. وفي الجهة الأخرى الصالون الذي كان يستقبل فيه الضيوف. (لا شيء يثير الإعجاب) سلاطين مملين للغاية ومتحف ملفق.

عندما سألت المدير عن سبب عدم وجود الوثائق والأسلحة والتماثيل التي قرأت عنها في المتحف وعدم

احتوائه إلا على القليل من الآثار..

قال: حرب الانفصال جعلت المتحف يفقد السيوف والملاعق الذهبية والوثائق وبعض التماثيل والتحف. لقد تعرض المتحف للنهب ولم يبق منه إلا الأشياء التي كانت مكدسة في إحدى غرف القصر.

ومن الطرآئف التي تروى أن آخر السلاطين كان في الثانيةعشرة من العمر فوضع الحاشية له شارباً مستعاراً عندما تسلم أمور السلطنة رسمياً.

غريب في مدينة مرتبكه..

غادرت قصر القعيطي لابحث عن حضرموت الساحل التي لم أعرفها بعد، عن الإنسان والتاريخ المهاجر.

ظللتني هذه المدينة ولم أتمكن فيها من ممارسة الشعور الموحد. متدينون وصعاليك وتجار ومثقفين وصيادين يختلفون في كل شيء إلا في الرغبة الملحة في الاستقرار والأمان. الشاطىء المرصوف بالأحجار الكبيرة والمتنزهين وزوارق الصيد إلى يميني. والى يساري تتزاحم المباني البيضاء في صف واحد وكأنها تتحدى البحر أو تغازله. للمباني شعور جامح نحو البحر. إنها حصيلة آلاف السنين من علاقة الإنسان بالمحيط، فمن المحيط أتى المهاجرون وعلى دعوة الموج

بالريح والمغامرة غادروا هذه البلاد.

لاتزال لديَ أسئلة ولا زالت المباني خطاً ابيضاً ولا زال البحر مغامرة لذيذة وغامضة.

الزوارق البخيلة تتأرجح بثقة في قدرتها على الاستمرار في المغامرة (إنها مهنة أبناء هذه المدينة الأولى).

يلي ذلك التجارة والوظيفة العامة. مهن لم تعد تعطي الكثير. تجاوزت الميناء القديم وأصبحت في قلب المدينة (سوقها المركزي) إنهم يتحدثون يتهامسون ويضحكون - دوائر كثيرة من لاعبي الضمنة التي يجيدها الجميع- أما تدخين التمباك والمعسل فله حلقاته أيضاً..

إنهم يمارسون كل شيء بشكل جماعي وأنا وحدي أحاول الانتماء لأي مجموعة دون جدوى- كانت الأماكن مزدحمة بكل شيء وأناغريب يتذكر الشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي عندما قال: في الزحام لا أحد.

كان النهار يحزم حقائبه وذوي السحنة السمراء لايعنيهم أثر النهار المهاجر.

لم يكن اليوم إثنين او جمعة- لذلك فلا أحد يتناول

القات من هؤلاء ومعظمهم لايتناوله البتة.

أسأل عن «الخلف» والجيمع يحاول إرشادي «إنهم طيبون» تجاوزت كل هذا لأمر من جوار مقبرة ولي الله يعقوب التي أصبحت مقبرة خاصة بعلية القوم، وأتجاوز حياً صغيراً.. إلى شارع يحتضنه الجبل ثم إلى منطقة الخلف حيث الميناء الجديد ومحطة توليد الكهرباءومصنع تعليب الاسماك (الغويزي).

ستدور معي حول الجبل أمام الساحل الصخري الجميل الذي يصلح للنشوة والتفلسف ولا يصلح للسباحة.

مشاريع استثمارية تطل على هذا الساحل توقفت جميعها وتركها المهاجرون نصف مشاريع وعادوا الى أوطانهم الجديدة ناقمين على كل شيء إلاا على وطنهم القديم (حضرموت)- لاأحد يتركهم ينفذون مشاريعهم بسلام- إطلاق النار-محاكم- تهديد- ابتزاز- والأهم من ذلك شعورهم بالركود الذي اصاب هذه البلاد بالإضافة الى عدم شعورهم بالأمان.. ورأس المال جبان كما يقولون، دورة كاملة وتعود الى الديس من طريق المطار.

بعد الوحدة انتشر العمران في الديس والشرج

وطريق المطار مدناً جديدة تم بناؤها وتحولت المكلا (المكلا القديمة- الديس الشرج) إلى ورشة كبيرة، رفعت من قيم العقار والدخل وفرص العمل والتوتر وجاءت حرب صيف ٩٤م ليتراجع كل شيء الى درجة التجمد. وحده التوتر أصبح بعد الحرب اكثر عنفواناً.

هذه المباني الجديدة لم تجد الخدمات العامة كالتليفون والكهرباء والمياه. إلا القليل منها.

أصبح لدى الناس اسئلة احتجاج واسف- واصبحوا مستفزين الى درجة كبيرة- ولذلك فهم يعبرون عن احتجاجهم دائماً ويتجمهرون حول اي شخص او حزب او شعاريتحدث عن همومهم ويلامس فيهم الإحساس بالظلم. سألت السائق والمثقف والتاجر و... الخ يختصرون كل شيء في أسفهم تجاه فساد الادارة ويجيبون عن اسئلتنا بنفس الاجابة الأولى.

فرحوا برحيل القبضة الحديدية وبمجيء الوحدة لكنهم فوجئوا بالفوضى التي لم يعهدوها من قبل.

هذه مدينة ربما تختلف في اختياراتها للأطعمة والازياء لكنهم يجمعون على حب المحافظ- وفي نهاية كل كلامي عن الإدارة والقضاء والرشوة تتكرر الجملة القائلة: بصراحة المحافظ أحسن واحد في الحكومة.

هذه هي عاصمة حضرموت (المكلا) أبرز نموذج للساحل التاريخي وعنوان حضرموت السياسي والثقافي- الارتباك والذهول ومحاولة ترتيب الاوراق- انعدام الوزن- هذا هو المأزق الذي صنعته الأحداث حينما لم تراع حساسية هذه البلاد تجاه التغيير السريع وتجاه كل ما من شأنه إزعاج المجتمع المدني الذي يتجسد في حرص الحضرمي وهدوء الحضرمي وحب ا لحضرمي للعمل والسلام والوضوح.

لماذا تبكين يا مارينا؟

(لا تعذبني والا- سرت وتركت المكلا لك...) لا أدري ما الذي عذب الشاعر حسين ابو بكر المحضار ليهدد بمغادرة المكلا.

أما أنا فقد عذبتني الحرارة والبؤساء والأسعار وشكوى الناس من الفساد وعشوائية البناء ثم عدم قدرتي على احتواء هذه المدينة في وجدان واحد. حتى الشمس تعامدت علي جبهتي وكأنني رمسيس الثاني في تاريخ ميلاده.

أتصبب عرقاً وغيضاً في انتظار سيارة تحملني إلى محطة النقل من الديس حضرموت الساحل الى سيئون- حضرموت الداخل.

في الديس محطة المغادرة على سيارة عتيقة ثلاثمائة كيلو متر في ست ساعات عبر طريق نصفه جيد بسبب ردم حفره ومطباته والباقي رديء للغاية (هكذا أخبرني أحدهم).

الديس- الحادية عشرة ظهراً- الشمس أجلت سكان العالم وتفرغت لي وحدي- بقي راكب واحد وتتحرك السيارة- كل متسولي المكلا تجمعوا في هذا المكان. وأنا أوزع ما لدي من نقود معدنية على الأطفال والعجائز الذين لم أرى مثيلاً لفاقتهم حتى الآن- واوزع اللعنات على رأس السياسة والاقتصاد و النظام العالمي الجديد ودرجة الحرارة واشياء اخرى لعنتها سراً كأي مؤمن ضعيف.

عمارات قبيحة- اتربةومتسولون- عيون مطفأة- وطفلة لا تدري لم هي جائعة وحافية بينما يضحك الطفل الذي يعابثه أباه داخل السيارة القبح يحصارني ورائحتي أضافت إلى اللوحة اللعينة عنصرها العميق، كل شيء إلا مارينا- كانت منطلقة نحو سيئون لتكمل عناصر رسالتها في الدكتوراه عن القبيلة اليمنية- مارينا بنت الاغريق تسافر وتتعلم وتبكي لأجل هؤلاء الأطفال الحياري، لمحت دموعها- إنها الدموع لغة

العالم الموحدة التي لم تقسمها الأطماع والحروب- تتكلم العربية بشكل مفهوم الى حد ما. جاءت من كريت في جنوب اليونان لتبحث عن سر القبيلة اليمنية- وعن تاريخ الإنسان في هذه الأرض (وعن خوفها من الاختطاف حدثتني) وعن اشياء كثيرة حاولنا بها اختصار الطريق الطويل.

قبل كل هذا الحديث- كان القبح ولعناتي ودموع مارينا وبعدها بقليل تحركت السيارة وبدأت تنهب الأرض نهباً- التفت يمينا نحو البحر كان بعيداً وزرقته لذيذة مودعة.

بدأ يختفي شيئاً فشيئاً وانعطفت السيارة باتجاه الغرب، أرض جرداء قاحلة جعلت مارينا توقف السيارة لشراء الماء تكراراً- أين يذهب كل هذا الماء؟ وكأي عربي -قبيلي- كنت أدفع ثمن المياه وتفرح مارينا لأنها وجدت من يهتم بها. وبدأ حديث طويل عن الأطفال وبؤسهم واستغلالهم في ست قارات، تذكرت عندها كم كنت مجرماً عندما منحت أولئك الأبرياء القليل مقابل احتشادهم أمام الكاميرا ففعلوها ببراءة وفعلتها أنا بكل وحشية- ليتهم يعذرونني ذات يوم- هم لايملكون فعل ذلك- لكنهم ربما يتذكرون دموع مارينا التي

جعلتني أحب الإغريق بما فيهم أهل اسبرطة الذين كانوا يعذبون الأطفال في سهول الجليد.

الطريق الى المدنية في الاخدود العظيم

السيارة تتسلق مرتفعاً جبلياً كبيراً ينتهي بهضبة واسعة تمتد غرباً بإتجاه الداخل، الطريق يمتد وعلى جانبيه الأخاديد الصغيرة التي بدأت تكبر وتتسع كلما أوغلنا في الطريق.

هذه الأرض الجرداء هي الفاصل بين حضرموت الساحل وحضرموت الداخل.

ثلاث ساعات من السرعة والحرارةوالعطش والأخاديد التي تتسع اكثر واكثر.

قرية صغيرة عطشى تتكوم على جانب الطريق وكأنها كائن كبير ظل طريقه فتجاوزته الأزمنة.

مسافات شاسعة بين كل قرية وأخرى- ومطعم لا يقدم الالحم الدجاج والكباش والأرز على الطريقة الحضرمية الشهية والشهيرة، انه المندي الحضرمي. بدأ الطريق يتقادم ويبدي عاهاته المحفورة على وجهه وبدأ يتخذ وضعاً انسيابياً يهبط بنا نحو اشواق خضر.

الطريق عائلي وخاص تشعر أنه ممر خاص بام وأولادها يذهبون ويعودون اخر النهار فغرقت في نشوة

مرتبكة وكأنني فرد في تجربة فيزيائية.. إنني أسافرعبر الزمن.

شعور آخر- مكان لم اتذوقه طيلة حياتي- الشمس لم تعد عدوانية لأنها اتخذت وضعا اخر واشعتها تمسح رؤوس الأشياء تربت على المكان. المرة الأولى التي اسير في طريق عائلي يمر بين النخيل.. النخيل تخبىء البيوت التي إمتصت أشعة الشمس الذهبية ورفضت إعادتها. إنها بيوت تبتهج.

كل شيء هنا يهمس.. ويلملم بعضه بعضاً. البيوت بيضاء وذهبية تغازل بعضها وتعانق.. توزيع لبيت واحد فيه أطفال مدهوشين. وكهل يحكي قصصاً خرافية (خيل إليّ هكذا) اخدود عظيم يلملمك ويغريك بالاستمرار بالنقاء والأصالة.

(ياللروعة) هكذا كنت أكرر على مدى ساعات. ويبدو أن السائق ضجر من هذه الجملة قائلاً: يا أخي المنظر عادي واللي يشوفك يقول جاي من أوروبا.

أما الإغريقية مارينا فكانت عيناها تحاولان ابتلاع المكان دفعة واحدة وكأنها أول من رأى شلالات فيكتوريا.

يطول الطريق ويتكرر تدفق القري والنخيل والدهشة. (هذه شبام) التي يسمونها أقدم ناطحات

سحاب. من يسكن هذه الشواهق؟ بيوت متجانسة متلاصقة شاهقة.. يقال أن النساء هن المستفيد الأول من هذا النظام العمراني حيث يتابعن التنزه من مخادعهن. ويمارسن النميمة على الأسطح.

بإمكانك أن تدخل من أول بيت في شبام وتخرج من آخر بيت دون الحاجة الى المرور في الشارع، ما عليك إلا اجتياز الأسطح المتلاصقة. شبام: أحد أهم محطات طريق البخور وطريق اللبان الذي كان يبدأ في الشحر وينتهي في خليج العقبة في الأردن...

رحلت الشمس بعد تجاوزنا لشبام.. بعدها بقليل كان المكان سيئون. وقفنا في السوق الرئيسي.. هل غادر السكان المدينة دفعة واحدة؟ جميع المحلات التجارية مغلقة: قال السائق الناس يصلون مغرب.

شعرت بالضيق وكذلك كان شبح القصر الشهير. إنه قصر السلطان الكثيري الذي بدى لي وكأنه يمارس طقساً خاصاً مقدساً.

سكون مهيب يلف المكان.. وكأي شخص أدرك أنه ضيفا ثقيلاً ومتطفلا بدأت أدور حول نفسي وأبحث عن سبب وجيه لقدومي، ثم عن مكان التقط فيه أنفاسي. بعد رحلة اتخمتني بالجديد والأسئلة

التاريخية.

ساعات مررت خلالها بالارض المؤنسنة (حضرموت الداخل) حيث الجبال والعآئلة وذاكرة الصراع بين القبائل القديمة قبل الاسلام. ناهيك عن السلطنات والهجرة الجماعية.

كل ذلك بحاجة الى إعادة فرز وترتيب في وجدان واحد وفي مكان ما من سيئون وجدت غرفة تنتظرني بشوق فتهالكت على أحضانها: وكانت ذاكرتي تحاول اختصار كل الذي مضى.

هذا هو الوادي المزغرد بالنخيل.
وبالنساء وبالذي ابتدأ الهوى
هذا هو الوادي الذي انكسرت
على اضلاعه
انثى العواصف فاستدارت
في الممالك والحروب
أنثى تؤججنا وتشعل قلبنا في كل يوم
كي نؤسس حلم مملكة اللبان
أنثى وما سميتها.. إلا لتحمل في اسمها
كل المباهج- حضرموت
(من قصيدة جنيد محمد الجنيد)

لم يحدث شيء بعد ذلك لأنني كنت نائماً.

بلاد المهاجرين والدراجات

الصباح هنا في سيئون خليط من التوتر والحرارة. القصر ينتظرني. لا أحد يتوقف كلها دراجات نارية خاصة. ما أكثر الدراجات النارية هنا في الشوارع الضيقة. كان يسير ميخائيل رديونوف الذي حيرني وصفه للمدنية بأنها طويلة.

سيئون الطويلة
عاصمة الشعراء
وسائقي الدراجات النارية

هذا الشاعر ربما رأى سيئون من خلال عدسته الخاصة.

تتكرر الشوارع الضيقة والدراجات النارية ولسعات الشمس- أخيراً وجدت عيناي ما يملؤهما- إنه قصر السلطان الكثيري أحد ابرز معالم سيئون - كنت ساعتها في قلب المدينة.

زحمة وعرق وسياح يشترون التحف ويلتقطون الصور ويستبدلون النقود ودراجات وسائقين يلبسون المقطب والفانلة البيضاء النصف كم.

صعدت إلى باب القصر الذي أصبح الآن متحفاً ليس

فيه أي تحافة. الآثار موضوعة كيفما اتفق وموزعة على بعض غرف القصر الرائعة. هنا الآثار القديمة والنقوش الحجرية - ثم العصر الإسلامي والسيوف والدروع - وفي هذه الغرفة أعلام السلطنة الكثيرية والقعيطية وملابس السلاطين وأسلحتهم. لاشيء يستحق جملة "ياللروعة".

متحف بائس يختبي في دهاليز قصر الذين جاءوا من يافع وأسسوا سلطنتهم في هذه البلاد.

مرت الدولة الكثيرية بثلاث مراحل من القوة والضعف. تاريخ لا أعرف عنه الكثير.

أعرف فقط أن مؤسس الدولة الكثيرية هو عمر بن جعفر الكثيري وأن السلطنة إمتدت على كامل حضرموت عام ٩٢٢هـ وأن أقوى السلاطين هو بدر الدين بن عبدالله. الذي وحد حضرموت وختم حياته ذليلاً أسيراً في أحد الحصون بعد أن أطاح به ابنه وتوفي عام ٩٧٧هـ. في كواليس هذا القصر دارت مؤامرات ومن بابه خرج السلاطين وبقي القصر متكبراً لا يعبأ بكونه متحفاً فوضوياً ومسروقاً.

إنتهت السلطنة الكثيرية عام ١٩٦٧م، عندما غادرت القصر التقيت بعمر سعيد بن علي أو باعلى وأظنه

الأخير هذا الذي فقد ربع قرن من حياته في سلسلة من الرعب ومحاولات الفرار الفاشلة أيام حكم الجبهة القومية (هكذا قال)، وفقد أيضاً ست سنوات في أروقة المحاكم بحثاً عن حقه في قطعة أرض اشتراها أخوه في المكلا واستولى عليها بعض المتنفذين.

قال عمر ضاحكاً: قاضي مرتشي أحسن من الخوف اليومي على أعراضنا وحريتنا.

عمر يعيش على التحويلات المالية القادمة من تبوك في السعودية - حيث يعمل أخوه في التجارة. التحويلات القادمة من المهجر هي التي صنعت جيش العاطلين في هذه البلاد.

كلهم مهاجرون وكلهم ينتظرون تحويلات المهاجرين، تاريخ هجرة ونتائج هجرة.

يتحدث نقش مصري عن جالية من جنوب الجزيرة استوطنت جزءاً من الدلتا وظلت محتفظة بخصائصها الحضارية يعود تاريخ النقش إلى القرن الثالث قبل الميلاد.

رغم كل شيء تظل حضرموت بيئة طاردة جعلت الريح ضالة الحضرمي أينما وجدها التقطها.

يركبون الموج أو يجتازون الصحراء بحثاً عن فرصة أو

فراراً من كوارث طبيعية.

في العام ٨٣٣هـ حدثت مجاعة حضرمية إضطرت الناس إلى أكل الكلاب والقطط. وفي أوائل الأربعينات من هذا القرن حدث ما هو أشبه بالمجاعة عندما عاد معظم المهاجرون الحضارم من اندنوسيا بسبب الحرب العالمية الثانية.

معظم مهاجري حضرموت استوطنوا أندونيسيا وجزر الملايو وللهجرة مآسيها بل إنها ليست أكثر من مأساة رغم التحويلات ورغم الأسماء الكبيرة في سوق المال والأعمال: باعظيم آل الكاف والسقاف، باخشوين ويا لا أذكر.

تظل مآسي الغربة التي حاول أحمد السقاف الشاعر الحديث عنها عندما قال:

وهاجر لاستكشاف حالة قومه

بجاوا فألفاها أشد وأشأما

الحضرمي دائم القلق على مستقبله وموارده فهو غير مستقر بالفطرة هم مدنيون ومسالمون لكنهم حريصون على المال اكثر مما ينبغي ويدفعون الثمن من استقرارهم ودفئ وطنهم.

يقول الشاعر الشعبي خميس الكندي:

والحضرمي مسكين عاده في بلاده ما استقر.

من آسيا لافريقيا عدت حياته في خطر

دايم وهو حامل جوازه والحقيبة للسفر.

مأساة الهجرة ظللتني وانستني أشياء كثيرة من ضمنها سبعة آلاف ريال. لا ادري أين فقدتها كان المبلغ هو كل ما املك.

من أين أدفع إجار الفندق ومن أين آكل؟

اقترحت أشياء كثيرة من ضمنها: بيع الكاميرا- الإتصال إلى صنعاء- البحث عن شاعر إسمه على أحمد بأرجاء - أفكار سخيفة.. لم أشعر بالضياع في حياتي مثل هذه اللحظات.

فكرت في كل شيء وانتهي دائماً إلى أنني في مأزق لعين.

أخبرك هذه القصة لتدرك كم هم طيبون وعاطفيون أهل هذه البلاد (لايذهب خيالك بعيداً أو تستنتج أنني تسولت أمام أحد المساجد فعطفوا على لا . لا) هم كذلك لأن موظف الاستقبال في الفندق وعمال النظافة سمعوا تفاصيل المأساة أثناء حديثي في التليفون مع مسؤول التحرير في المجلة.. كلهم يسابقون لتقديم خدمة إنسانية.

حتى أن مدير الفندق حمل العشاء بنفسه إلى غرفتي وعرض علي قرضا سخياً حتى تصل النقود عبر فرع شركة الصرافة في سيئون.

في أحد ممرات الفندق سألني أحد الموظفين قائلاً: أنت الصحفي الذي أضاع النقود؟ أي خدمة أنا مستعد- هل تريد شيئاً؟

هم هكذا دائماً. متعاونون ونموذج رائع لليمنيين الأرق قلوبا والألين أفئدة، وأظن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعني بأهل اليمن - أهل حضرموت بالتحديد.

الميراث الأبيض

صباح الجمعة كان الهدف مدينة المساجد والمخطوطات والأربطة ومشائخ العلم، تريم، والوسيلة سيارة عتيقة.

عيدروس السقاف إلى جواري فتى في مقتبل العمر ملابس بيضاء من الحذاء حتى الطاقية.

عيدروس جاء من أندونيسيا للدراسة في رباط المصطفى العلمي (هكذا هم المهاجرون) يرسلون أبنائهم للتطعيم ضد فقدان الهوية.

يدرس عيدروس أصول الفقه ومصطلح الحديث

والنحو والصرف (علوم الآباء والأجداد)، وكأي فتى مهاجر عاد على أحمد باكثير من جاوة في مقتبل العمر.

تعلم باكثير وحاول فيما بعد فعل شيء لهذه البلاد. كانت حضرموت تعيش صراع العلويين والإرشاديين، كمذاهب وشيوخ علم، وكان الظلم ومخلفات الهجرة. أصدر جريدة إسمها التهذيب، ضايقه الجميع وحاربوه فهاجر حتى استقر اخيراً في القاهرة. كان قبلها قد ألف روايته الأولى (همام أو في بلاد الأحقاف).

باكثير الذي عرفناه في (وا إسلاماه) وجلفدان هانم وزوجة عبدالمتجلي.. وحبل الغسيل وفرعون الموعود وسر الحاكم بأمر الله ومأساة أوديب وهي مسرحية تحاول إسقاط الأسطورة على مأساة الشعب الفلسطيني. وقبل أن يموت باكثير من مأزق الحصار الإبداعي الذي فرضته عليه مؤسسات السلطة الثقافية حينها صرخ قائلاً: لأن أكون راعي غنم في حضرموت خير لي من هذا الصمت المميت في القاهرة.. رحل راعي الغنم الحضرمي عن هذا العالم عام ١٩٦٩م تاركاً قصة المهاجر الحزين التي لم تظهر كما يجب في ثنايا كتاباته.

واخيراً منحته الدولة اليمنية الوسام ضمن مشروع تكريم أدباء حضرموت، الذي ضم على أحمد باكثير وحسين أبو بكر المحضار "الشاعر المعروف" بالإضافة إلى الباحث والمؤرخ الأديب عبدالقادر الصبان.

هذه تريم إذاً، إلى اليمين من مدخل المدينة قصر رائع سأعود إليه فيما بعد، ثم ممر ترابي ثم الساحة التي تكتظ بالناس.

مكبرات صوت - وجوائز وزحمة. علمت ان إحدى شركات المنظفات تقوم بحملة إعلانات عن طريق توزيع الجوائز بعد بيع المنتج وتوزيع الأرقام ومن ثم اختيار المحظوظين (نوع من التعريف بالمنتج).

الحكاية هي ان الجوائز عادية جداً والناس يتزاحمون حول السيارة أملا في الفوز بإحدى هذه الجوائز الرخيصة.

قال لي المسئول عن حملة الإعلانات إنه لم ير هذا الإقبال إلا في هذه البلاد هؤلاء القوم حريصون ويبحثون عن الفرصة دائماً ويتسابقون عليها.

القصر الذي أذهلني عن زحمة المهرجان كان أبيضا وكبيراً وفخماً أيضا لكنه حزين مهلهل. إذ أصبح مقراً لحزب المؤتمر وقسم شرطة المدينة.

إنفض الناس من الساحة وعادوا بملابس الجمعة، رائحة الجمعة هنا نفاذة جداً، ملابس نظيفة، وطاقيات دائماً بيضاء، ووجوه متوضئة.

في الجانب الآخر من الساحة. مسجد فتح الإمام الحداد. أحاول تخطي الرقاب، الجميع يقراون القرآن. وصلت الصف الأول والتفت لأرى أكثر من آلف شخص يرتدون زيا موحداً وتختلط أصواتهم لتصنع سيمفونية ملائكية طاهرة، ملخص ما حدث أنني كنت اسوداً، وحدي كنت كذلك. والباقي مجرد بياض.

الذي يتجه نحوي كان كهلاً وقوراً الجميع يتسابقون على لمس يديه وإفساح الطريق أمامه. يداه ترتعشان وتوزعان البركات على رؤوس الجميع بما فيهم الأسود الوحيد في هذه السهل المضيء.

خطيب الجمعة قال: الحمدلله فردد الألف متدين الحمدلله.

خطيب الجمعة يبكي والبعض يشاركونه. وأنا أوشك ان أبكي لأنني لم أتمكن من مشاركتهم- ولأنني أيضا شعرت انهم شيء وأنا نقيضه وهذا ما كان يعنيه عبدالكريم الرازحي عندما قال:

يتقاتلون.. وأنت تبكي

يتصالحون.. وأنت تضحك

يتقاربون.. وأنت تنأى

يتوحدون.. وأنت وحدك

بالفعل: لقد توحدوا وأنا وحدي وهذه مأساتي مع حضرموت من المكلا إلى تريم.

بعد الصلاة مباشرة كانوا يتعانقون وأصوات الأناشيد وعبق التصوف تنطلق من أشرطة الكاسيت حيث محلات التسجيل تعلن عن جديدها.

في هذه المدينة ثلاثمائه وستين مسجداً (هكذا سمعت) وفيها أربطة العلم، في الماضي كان الطالب في الرباط يصنع طعامه بيديه والآن تمكنت الأربطة من توفير الخدمات..

في رباط المصطفى أكثر من ألف وأربعمائه طالب. من حضرموت وأفريقيا وأندونيسيا وجزر الملايو.

كان الطلبة قد احتشدوا حولي ليحدثوني عن الدرس الأول الذي يتعلمه الطالب وهو الأدب (الأخلاق الحميدة)

فترة قد تمتد لشهر كامل. لا يسب الطالب فيها ولا يشتم ويقدس العلم والشيخ ويقيم الشعائر الإسلامية.

يتسابقون على الإجابة عن أسئلتي وعن الحديث عن شيخهم وكأنهم يتحدثون عن مخلوق خرافي ابيض.

فقهاء أولياء وأضرحة، وتاريخ تدين وحركات.. عبدالله بن يحيى الكندي الملقب بطالب الحق جاء إلى حضرموت بالأباضية التي انتشرت كالنار وتراجعت وتحولت إلى رماد بعد صراع فقهي مرير.

أما أحمد بن عيسى المهاجر فقد فر من مكة عقب هجوم القرامطة عليها وسرقة الحجر الأسود، فر إلى حضرموت وأصبح قبره مزارا كأحد اهم الأولياء.

والى المهاجر ينتسب العلويون في حضرموت.

قبل مغادرة تريم كان علي دخول القصر الرائع الذي بناه أحد أفراد آل الكاف.. هذه الأسرة التي كان لها جزءاً من القرار في حضرموت.. فهم يملكون أضعاف ماكان يملكه بعض سلاطين الدولة الكثيرية.

وآل الكاف الذين أطلق عليهم أحد الرحالة إسم «مدتشي حضرموت». إسقاطا على أسرة مدتشي الإيطالية التي كانت تملك جزءا من القرار السياسي في روما على أساس امتلاكها للثروة.

عاد القصر إلى أصحابه بعد الوحدة وتم تحويله إلى فندق تمنيت النوم فيه ليلة واحدة أحلم فيها بأنني

أصبحت ثريا يصدر عدد من الصحف والمجلات في جزر الملايو أو سنغافورة. كما يفعل أحد أفراد هذه الأسرة التي تصنع المال والجمال والفخامة.

غادرت ساحة القصر وأنا أحاول البحث عن جديد إذ أن هذه الأرض بدأت تتكرر. سلام - تدين - قصور - اناس ينتظرون تحويلات المهجر المالي بالإضافة إلى النخيل.

حتى ما رينا التي تماهت في حضرموت ولم أرها بعد وصولنا (أظنها تحجبت) وأخرى رأيتها في الفندق مع رفيقها. ورأيتها فور خروجي من قصر الكاف لنعود إلى سيئون على سيارة واحدة.

إنهما ألمانيان يحبان حضرموت (هكذا قالاً) ولديهما كتب فيها أدق تفاصيل حضرموت في التاريخ والجغرافيا والإنسان.

تحدثنا كثيراً عن فلاسفة ألمانيا وموسيقييها ولم أفهم منهما شيئاً. كان حوار طرشان.

متواضعين واليقين جعلاني أعيد التفكير في قناعتي عن عنصرية الألمان ذوي الدم الأزرق.

لغتهما اشد غموضاً من أراء فلاسفة ألمانيا الحديثة.

كانت السائحة الألمانية قد أبلت حسناً عندما

استجمعت كل ما لديها من عربية قائلة: - حضرموت - تمام - طيب - هدوء "وهذا كل شيء".

إلى اللقاء أيتها المدينة

عدنا إلى سيئون لنتناول بقايا غداء ونشتري بقايا قات. لكن درجة الحرارة العالية جعلتنا نمضغ القات كمن يتناول جرعة هروين إذ كان تأثيره قويا لدرجة أن الخواجة الألماني لم يكف عن ترديد (أوه- كات- تمام).

المسكين لم يكن يدري ساعتها ما سيحدث له بعد هذه التخزينة الجهنمية - (يستحق ما سيحدث له لأنه كان مزعجاً للغاية).

مطار سيئون ليس له علاقة بالمطارات هذا إذا استثنينا صديقي الذي يعمل هناك في برج المراقبة (لأنه لايعمل إلا في مطارات) وكذلك طريق إسفلتي تعيس يصلح للإقلاع (لم أجربه في الهبوط).

والباقي مجرد مقاعد مهلهة ورجل تظنه يعمل في ضرائب القات. لا يحفظ شيئاً سوى (ايش هذا اللي في الشنطة؟) ورغم كل شيء فالطائرة أقلعت وبدأت تسافر في طريق فرعي يشبه طريق قريتي. أي طيار هذا؟

كان علي باوزير الى جواري وأنا إلى جوار النافذة والنافذة إلى جوار مساحة الرعب التي شغلتني عن

باوزير وقصة فراره من أحد المخيمات الطلابية في أوائل الثمانينات، وأشياء أخرى من ظمنها: أكملت دراستي - أصبحت تاجراً..(حضرمي: ماذا تظنه سيصبح؟) يواصل علي باوزير سرد سيرته الذاتية وتفاصيل اعتقال والده وكيف رق قلب الرئيس علي ناصر لكهولته وإطلاق سراحه، كان يردد في آخر كل عبارة "تظل الغربة غربة".

أنا بالطبع لم أقل كلمة واحدة كنت اكتفي بهز رأسي مردداً: آها

وأعود للغرق في الرعب من عطل يصيب المحرك الرئيسي وبقية التفاصيل حتى ارتطام الطائرة بأحد القمم الجبلية ووقوع الكارثة بضياع الكاميرا وجهاز التسجيل والاستطلاع فافقد بذلك وظيفتي.

- يا أخي لن أتحرك إلا بستة راكبين

- أنا أول من أعلن توبته من جريمة الانفصال رسمياً

- أغان شبابية وتسول على الطريقة الأوربية.

- جاء أصحاب اللحى وورثوا تاريخ التراكم الروحي لهذه البلاد.

- هناك فيه اختطاف - حضرموت مافية اختطاف

- جيت من إندونيسيا أتعلم في رباط المصطفى.

- حضرموت تمام طيب هدوء

- بلاد المسالمين والمهاجرين" والقصور والنخيل كلهم وأنا وحدي.

- ليتني أعود يا حضرموت.

صنعــــــاء

ماتزال لأهل المال طيبة

البحث عن صنعاء اخرى لم تقتل
الطموح ولم تنهبها القبائل

المتحف التاريخي الكبير محاصر بالقمامة...!

حاول أن تلملم أجزاءك قبل الدخول من باب اليمن-صنعاء مدينة القرار الجماعي السريع في الدين والحرب والبيعة والحب.

دخلها التاريخ اكثر مما دخلته، ولم يتمكن من الخروج بعد ان أدمن الكسل الارستقراطي.

إنها المدينة المدللة التي ظلت تتخذ القرار السياسي من قلب الطيرمانه حيث القات والماء المبخر، إنها تقرر الحرب وتترك التفاصيل لرجال القبائل..

عندما اقتربت بشكل آخر من هذه المدينة، كان الجميع يعدون لرمضان عدته، شراء لوزام الطعام ومكوناته وخصوصاً أطعمة رمضان كالسنبوسة والبقلاوة والرواني وأنواع العصائر.

وكان الحديث عن جرعة اقتصادية قادمه ومؤمراة أجنبية يقودها سوري محترف تم القاء القبض عليه واعترف بتفاصيل عمليات تخريب واغتيالات..

كثيرون اولئك الذين يدخلون صنعاء وينقسمون ويخرجون وتبقى صنعاء مدينة استثنائية لاتتكرر ولاتنقسم.

كذب المنجمون

قبل أن اتجاوز باب اليمن فضلت معرفة اشياء لايمكن معرفتها لانها مستقبلية، وحدها العجوز ذات العين الموغلة في القدم والغموض تدعي أنها تعرف، هي عرافة لكن اسمها وصفتها في اللغة الدارجة (متنبلة).

هذه العجوز لاترجو ولا تتزلف، انها تؤدي عملها بكبرياء مقابل عشرين ريالا لتقوم بتحريك الأصداف البحرية التي تشبه عينها اليمنى:

اول ما اخبرتني به هو: هناك اناس يكرهونك.

– أعلم ذلك لأن كل الناس يكرهونني.

قالت: أنت كريم وشجاع وستكون من الاغنياء.

قلت في نفسي: أنت التي كريمة فوهبتني كل هذا الأمل.

عندما تقف امام الباب الرئيسي لهذه المدينة الرائعة المدللة ستنشطر الى إثنين أحدهما يعيش القرون الوسطى والآخر في القرن العشرين.

ياللتصميم الشرقي الحربي الرائع.. سور يتوسطه باب عظيم مفتوح ومزدحم بالناس وباعة الملابس والخردة المتجولين والصيارفة..

لست بحاجة الى مفتاح باب اليمن لتدخل. لأنك

لست رئيس دولة أجنبية او عربية ليمنحوك هذا المفتاح.

كنت لحظتها قد وقعت في حيرة بالغة، لأن معظم الرؤساء الذين يزورون هذه المدينة يعودون بمفتاحها..

تعددت المفاتيح وتجاوزت العشرين مفتاحاً.. بحثت عن سبب لتعدد المفاتيح ففشلت وقلت في نفسي:

– ربما كان الأئمة يصنعون مفتاحاً خاصاً بهم ولكثرة الاولاد (اولاد الائمة طبعاً) فإنهم يلجؤون الى نسخ المفتاح الأصلي الى عشرات النسخ. حتى اذا ماتأخر أحد الأمراء في جلسةقات خارج اسوار المدينة يكون بحوزته مفتاحه الخاص حتى لايدق الباب ويزعج الناس وهم نائمين، أو لايجد من يفتح له، فيفتح الباب في اي وقت من الليل ويدخل. او هكذا خيل إلي.

السبب الثاني هو أن هؤلاء الرؤساء الاجانب سيصبحون غير رؤساء ولا سياسيين، واذا ماهز الشوق أحدهم الى العاصمة اليمنية وعاد فربما لن يجد غرفة في احد الفنادق في صنعاء الجديدة.

سيكون مفتاحه الخاص معه، وماعليه إلا أن يفتح باب اليمن ويذهب للنوم في أقرب سمسرة.

باب اليمن مزدحم للغاية، عندما دخلت بخطوتين قفزت الى ذاكرتي أسماء كثيرة وأحداث متعاقبة..

من هنا دخل عشرات الملوك والأئمة ومن الابواب الأخرى خرجوا..

من هنا بدأ تاريخ النهب والمصادرة وانتهى عند اخر بيت في شمال المدينة، ليولد من جديد، صانعاً مشردين جدد واثرياء كثيرين.

صنعاء مدينة التحف والمال وكل مايمكن إضافته الى قوائم الطامعين.

دخلها الأحباش بأمر من بيزنطة التي كانت تبحث عن أماكن جديدة تتحكم في طرق التجارة (٥٢٥م-٥٧٣م) نهبوا المدينة وبدأوا يفكرون في سبل جذب العرب الى صنعاء للمتاجرة والزيارة.

فطافت فكرة بناء القليس (القُلّيس كلمة محرفة عن الكسيا وهي تعني الكنيسة).. لم يكن يريد الأحباش من بناء القليس شيئاً اكثر من منافسة مكة بكعبكة جديدة أكثر جمالاً وفخامة.

غرقة القليس

عندما بحثت فيما بعد عن القليس وجدت حفرة مليئة بالزبالة حولها سور حجري قبيح مكتوب (سور

غرقة القليس من منجزات امانة العاصمة، وتاريخ الإنجاز الذي لم أعد أذكره).

هذه الحفرة تقع في قلب حي يسمى باسمها حي غرقة (القليس) ولم أجد الى الآن سبباً لتسميتها غرقة (بالقاف) وأظن أن السبب يعود الى أن الكثيرين قد قاموا بالحفر على مر الأيام بحثاً عن ذهب القُلّيس.

وفي عام ٩٣٢ اقتحمها «برسباي» احد قادة الجراكسة أيام قنصوة الغوري بعدما قتل عامر بن عبدالوهاب أحد ملوك بني طاهر. ويقال أنه غادرها بحمل ثمانية آلاف جمل.

واقتحمها الأتراك أكثر من مرة فباعوا عاداتهم الأرستقراطية لأثرياء المدينة وحاولوا أخذ فقرائها للحرب ضد بني جلدتهم.

في عام ١٣٢٢هـ اقتحمها علي بن حميد الدين من أسرة آل القاسم الرسي وهلك من اهل صنعاء مايقرب من ٤٠ الفاً.

ثم كان عام ١٩٤٨م حيث تعرضت للنهب المنظم الذي

قاده إسماعيل بن يحيى حميد الدين إثر فشل ثورة ٤٨ بعد مقتل الامام يحيى.

هكذا هي صنعاء تمارس كل طقوس المزاج الهادىء وتقرر أشياء خطيرة تترك تفاصيلها للقبائل.

كل هذا الحشد من الملوك والدم والنهب تزاحم في ذاكرتي فارتكبت خطوة أخرى لأجد نفسي بين الباعة المتجولين والصيارفة.

هنا في باب اليمن بإمكانك شراء سترة مستعملة قادمة من وراء الشمس او تشتري مليون دولار هذا المكان مرصوف بالحجر الجرانيت الاسود منذ اكثر من مائة سنة كغيره من شوارع صنعاء القديمة الكل هنا يبيع كل شيء انه المنطقة الاولى من سوق الملح الذي يمتد شمالا ليصل الى قلب المدينة.

وفي هذا الشريط المزدحم تتكرر الوجوه الأجنبية.. سائحون من غرب أوروبا وأمريكا يشترون كل ماهو قديم، حلي، ثياب، صور لصنعاء، ويقومون بالتصوير واستبدال نقودهم لدى الصيارفة دون حدوث سطوا أو سرقة في زحام كهذا، وفي حي قديم يكون أمثاله في البلاد الأخرى مأوى للصوص والصعاليك..

في سوق الملح

أول سوق الملح بعد باب اليمن تجد الدكاكين صغيرة وتبيع سلعة واحدة تتكرر في أكثر من عشرة دكاكين، وأسعار العقار هنا مرتفعة جداً لأنها منطقة تجارية نشطة للغاية.

وحدات متجانسة تجعل سوق الملح منظماً الى حد ما من حيث بيع السلع، فكل مكان مخصص لسلعة معينة أو لمجموعة من السلع المتجانسة، فاولاً التمر، ثم التحف والحلي القديمة فالمكسرات (الزبيب واللوز) فالأقمشة وهكذا..

معظم تجار سوق الملح من أهل صنعاء القديمة، وهم يتميزون عن باقي أهل المدينة بأنهم (أولاد سوق) من حيث أنهم أقل (التزاما) بتقاليد الكلام والتعامل لأنهم أكثر اختلاطا بالآخرين من غيرهم التاجر هنا يتغدى مبكراً، ويجمع بين صلاة الظهر والعصر، ويكون قبلها قد اشترى القات، ويأخذ معه الماء المبخر، ويبدأ التخزين، السياح هنا يشترون الكثير من المصنوعات اليدوية والتحف والحلي وبأسعار خيالية أحياناً، أخبرني أحد تجار هذه السلعة أن ٦٠٪ من هذه التحف

وأدوات الزينة أصبحت شغل حديث وليست قديمة.

إلى سمسمرة النحاس

أمـشي ولا أدري هل أبحث عن صنعــاء أم أبحث عن نفسي، في مدينة كهذه كل شيء يغريك بالشراء، وكل جيب يذكرك بمبادئك العتيقة فلا تشتري شيئاً آخر غير كروت وصور للمدينة المدللة البخيلة.

وجدت نفسي أمام بناء قديم يتكون من ثلاثة طوابق يزدحم بابه بالسياح (الأجانب طبعا) إنها سمسرة النحاس..

كانت أشهر سمسرة في صنعاء تستقبل الغرباء وتوفر لهم شيئا من الدفئ في مدينة لاتعرف شيئا أكثر من البرد والبخل.

في عام ١٩٨٨م وتحديداً في ١٩ مارس من هذه السنة تم افتتاحها بعد إعادة ترميمها لتصبح مشغلاً تعليمياً وسوقاً لبيع المصنوعات اليدوية إنها تبيع المصنوعات القديمة للجميع لكن الأجانب وحدهم يشترون. دكاكين صغيرة على جانب الطابق تطل على ساحة فسيحة ربما كانت الساحة للحيوانات (الحمير والبغال والخيول) والدكاكين كانت غرفاً للنوم طبعاً.

تبنى مشروع إعادة الترميم السيد (فون جاردر) سفير

الترويج بصنعاء، وكعادتي غادرت السمسمرة ولم أقتن شيئاً، كنت فقط أردد ماقاله احمد العواضي الشاعر الكبير:

(سمسرة النحاس مدي من الأحلام. حورية من الأحجار والقبعات والخشب المقفى).

(اجمل الاسماءسمسرة النحاس واجمل الفتيات واجهة المدينة).

كل شيء كبير..

غرب سمسرة النحاس تماما يجلس الجامع الكبير الذي بني على عدة مراحل الجامع غريب على غريب مثلي فهو أربعة مستطيلات تلتقي من اطرافها وبين هذه المستطيلات الأربعة ساحة مفتوحة كبيرة ومن مستطيل الى آخر تدخل عبر باب صغير. لم يبن الجناح الشرقي للجامع إلا في عهد الصليحيين، بنته اروى بنت احمد الصليحي، وكان قبلها على شكل حدوة حصان (انا لم أر الحصان في حياتي حقيقة الا في التلفزيون وملصقات المؤتمر الشعبي العام أثناء الانتخابات الأخيرة).

الجامع كبير الى حد ما، والعدد الذي يدخله من الناس كبير، مكتبة كبيرة، ومصاحفها كبيرة. يقرأ بها كبيرو السن وقليل جداً من الأطفال.

للجامع الكبير عبقة الخاص فهو مدرسة المذاهب التي تعاقبت، سواء المذاهب السنية او المذهب الهادوي.

ادور في احياء المدينة، مدينة المذهب والالفة والبخل والأرستقراطية، الانوف الشامخة المعقوفة.. الجص الجميل والزجاج الملون مدينة الخصوصية والأسر الكبيرة.. معظم الأغنياء غادروا اسوار المدينة وبنوا بيوتاً خارجها وحولوا البيت الكبير الى فندق حيث يمكن للسائح أن يدفع الكثير مقابل النوم في التاريخ والجص والاسرار. إنه يعو دالى بلاده ويقول لأول صديق لقد نمت في أكبر متحف تاريخي في العالم.

عادات خاصة

وهذه المدينة مسكونة بالزعامة، فهي دائما تصنع الزعماء القادمين من مناطق أخرى وتدفع الثمن فيما بعد.

حتي في الحارات العاقل عاقل الناس جميعاً.. تجد الرجل ذا البطن الكبيرة ومشية طلاب كلية الشرطة اثناء التخرج يعاقب أي طفل يرتكب حماقة أو يشاغب.

هناك احترام وتوقير للكبار من قبل الجميع، وهذا متعارف عليه.. الانتماء أسري بالدرجة الأولى، ثم للشلة وبعدها الحارة، أما الحزبية فتأتي في المرتبة

الاخيرة.

مجموعات محدودة ومجالس معروفة للقات، والحديث في الفقه والشعر والفن حيث الماء المبخر والساعةالسليمانية التي تقدس الصمت والخلود الى أحلام القات وكوابيسه.

أهل صنعاء منغلقون على أنفسهم الى حد كبير، فلا تنتظتر من صنعاني أن يدعوك على وجبة غداء إلا بعد نصف قرن صداقة. ربما يدعوك الى جلسة قات بعد صداقة ثلاث سنوات بالطبع.

وهم غير مبذرين لذلك تجد السلتة تأتي في إناء فخاري تظنه إناء لإطعام العصافير. (هذا ليس دليل بخل، بقدر ماهو دليل تدبير وذوق).

وفيهم حدة الطبع- خاصة كبارا لسن- والإهتمام بالشعر الغنآئي وبارضاء نسائهم.

(عرسين ولا ولاد) مثل صنعاني يقوله الرجل بعد أربعين يوما من طقوس الولادة والاحتفال والمجابرة. يخرج بعدها منهكاً أكثر من بني اسرائيل بعد تيه أربعين سنة. كل يومين او ثلاثة أيام مرحلة من مراحل الاحتفاء بالمولود وسلامة الوالدة. آخرها الحمام وما

ادراك مـا الحـمـام؟ ذهبت في إحـدى المرات أبحث عن حـمـام يريحني من تراكم أتربة نقم على وجـهي وذاكرتي.. ظللت ساعات ابحث عنه والاطفال يكذبون عليّ (سير من هانا تبسر حانوت كبير خلف من جنبه وبعدا...) إرشادت تجعلك تقطع مسافات كبيرة بينما تكون في المكان الذي تبحث عنه.

المهم أنني وجدت الحمام، كان البيض مكسراً على الباب قلت في نفسي ربما يكون أحدهم قد أحضر معه بيضاً ليسلقه في الماء الساخن فسقطت منه بعضها.

نزلت السلم الحجري حتى نهايته خطوتين الى الأمام، أصوات ولغط نساء وقباقيب أدركت أن أمامي خطوة واحدة وأدخل التاريخ من أفسق ابوابه.. رجعت على وجهي ويداي ورجلاي حتى وصلت الى الباب فتقافز بعضهم من السيارة (لا ادري اين كانوا عندما دخلت) وبدأ الشتم والأيدي تستعد للصفع. حلفت أنني لا أدري أن الحمام قسمين رجالي ونسائي، صرخ أحدهم في وجهي: أنت اعمى ماتبسر البيض المكسر؟.. نجوت منهم بأعجوبة..ولم اقتنع بعدها بان البيض يكسر بعد المراة الوالدة التي تدخل الحمام إبعاداً للجن

والحسد. ولكن البيض يكسر حتى لا يخطىء المغفلون أمثالي..!

الياب الكلاب

هذا المجتمع احادي، لكنه تراكمي لاكثر من ثقافة وذوق وحتى سلالة. ومما لاشك فيه أن التحولات اضافت اليهم خبرات ووجوه، وسرقت منهم بعض العادات الحميدة والسيئة، وأثرت في التركيبة الاجتماعية، فخسر البعض الكثير من الإمتيازات التي كانت تعطي لهم من قبل الأئمة وربح الكثيرون وظائف وفرص عمل وتجارة.

أثرياء قدامى وجدد خرجوا الى المدينة الجديدة، ودخل بدلاً عنهم موظفون يبحثون عن إيجار منخفض، وعاشقون من اليمن ومن أوروبا يبحثون عن التاريخ الشاهق الذي يسكن هذه المباني الآحادية الشاهقة. هذه القصور التي تكررت في هذه المدينة (نفس الواجهات. نفس الأبواب) كل الطيرمان (الطيرمان. مكان القيلة والصلف) وهو أعلى غرفة في البيت. هذا الطيرمان يجعل رأس المبنى مدبباً تبدو المباني كانياب الكلاب. صدق النبي صلى الله عليه وسلم عندما أراه الله صنعاء من مكانه في الخندق (رأيت قصور صنعاء كأنها

أنياب الكلاب).

ورحم الله عثمان بن عفان الذي يقال انه أمر بهدم قصر غمدان حتى لايفتن الناس.

كان هذا القصر أكثر من عشرين طابقاً. آخر طابق فيه مسقوف بالزجاج. حتى يرى الملك الطيور وهو مستلق في غرفته نهاراً ويراقب النجوم في الليل.

حاولت دخول هذا القصر الذي لم يعد منه على قيد الحياة سوى أسواره المنيعة.

جزء منه يسمى بيت الكدم (الخبز الذي يصرف للجيش) وجزء كان يسمي قصر السلاح.

من هذا القصر بدأت الخطوات العملية لفشل ثورة ١٩٤٨م حيث كانت مؤامرة قادها احد ابناء الامام يحيى فتمكن من السيطرة على القصر بالمال والترهيب.

لم أتمكن من الدخول الى قلب الاطلال لأن القصر أصبح معسكراً.

صنعاء كانت مدينتين يفصل بينهما سور.

في الشرق حيث الأحياء الشهيرة: الزمر، الفليحي، والأبهر، خزيمة، وسوق الملح... إلخ..

هذا الجانب الشرقي حيث الجامع الكبير وقصر

غمدان وسمسرة النحاس.

قاع اليهود

الجانب الاخر من المدينة كان يضم بير العزب، وقاع اليهود، عندما غادر اليهود صنعاء وقاعها العريق حملوا معهم الكثير من الذهب والفضة التي تراكمت لديهم بفعل احتكارهم للصناعات الحرفية كان ذلك عام ٤٨م- ٤٩م. يقال أن الامام سمح لهم باخذ اموالهم واشترط عليهم تعليم البعض من ابناء صنعاء اسرار مهنتهم.

يتميز قاع اليهود الآن بأشهر مطاعم السلتة الصنعانية ومبنى وزارة الخارجية.

إهتمام كبير من مراكز الدراسات والجامعات الأوروبية بصنعاء القديمة ولذلك فهم يتبنون الكثير من اعمال الترميم والتأهيل الحرفي وبالتحديد الألمان والفرنسيين، فقد أعادوا بناء الكثير من أسوار صنعاء والبيوت التي تهدمت.

كان سور صنعاء الرئيسي قد بناه طغتكين الايوبي اخو توران شاه الذي كان قائداً للحملة الأيوبية الى اليمن، ومكث في صنعاء من ٥٨٠- ٥٩٠هـ.

صنعاء مغلقة بموروثها الديني والتاريخي وبتكوين ابنائها نفسيا وكانت تفتح أبوابها في الصباح وتنسى أن

تغلقها مبكراً فيتسلل العشاق والبائسون واللصوص والصحفيون.

«باب اليمن- باب شعوب- باب الروم- باب السبح- باب الشقاديف) ربما كانت تسمية الباب الاخير من تراكم أشياء يظنها الفقراء مهمة ويسميها الارستقراطيون شقاديف.

عندما حاولت الخروج بشيء من هذه الملكة الجميلة التي أصبحت كإليزابيث (تملك ولاتحكم) كنت حزيناً أني لم أتمكن من معرفة الكثير من اسرارها.

شيئان جديدان تمكنت من معرفتهما:

١- معرفتي للسبب الذي دفع أهل هذه المدينة للإفطار في شهر رمضان باليقل والحلبة (الحامضة).

٢- اسطورة خزيمة، الفتاة اليهودية التي أحبت الشاب الصنعاني المسلم وعندما حاولا الزواج قام المسلمون بتوبيخ الفتى العاشق وذبح اليهود خزيمة.

بكاء في المدينة الجديدة

عندما حاولت الكتابة خارج أسوار صنعاء القديمة، كنت كمن يحاول أن يطبق نظرية (انيشتاين) ويحلم بالسفر عبر الزمن، فكرة واحدة كانت تلح علي وأنا اسير في الشوارع التي تسمي مجازاً شوارع صنعاء الجديدة،

هذه الفكرة هي أن أُصدق ماقاله سفير أمريكي سابق:

(اي عاصمة هذه؟ ليس فيها سوى صنعاء القديمة، والباقي مجرد تجمع للبشر والقمامة).

قلت في نفسي بالفعل أيها السفير، لكنك نسيت إضافة شيء هام هو الكآبة.

زحمة وعشوائية وقمامة تعتلي الأرصفة، وبالوعات تتقيأ واقعا قذراً للغاية، وهذه هي اولى معالم صنعاءا لتي تستقبل السائح فور خروجه من مطار صنعاء.

نقول صنعاء الجديدة بأعتبار أن كل ما سبق ذكره شيء جديد الى حد ما.

ورغم العشوائية المتسعة إلا أن المدينة تزحف ببطء نحو البناء المنظم والحديث في اطرافها. حدة- الحي السياسي، وفي الحي الاخير يقطن معظم السفراء والأثرياء والمقيمين في اليمن من غير اليمنيين.

فمن خارج أسوار المدينة القديمة يقطن اليمن بكل تنوعه البشري والثقافي.

ولذلك فكل يفكر كما يريد ويعربد كما يريد ويجوع كما أراد له الواقع السفيه.

في صنعاء الجديدة يختلف الناس في كل شيء

ويتـفـقـون في الأجـواء الرمـضـانيـة حـيث المسـجـد والترواِيح والدموع.

(شارع مجاهد، مسجد هزاع المسوري): ذهبت الى هذا العنوان بعد الحاح من رجل أعمال صديق لي، المسجد مزدحم للغاية والجميع ينتظرون إمام المسجد.

صلاة العشاء ثم التراويح ثم الدعاء وهنا يبدأ البكاء الجماعي.

بكيت خـشـوعـاً وبكيت لأنني مـواطـن يمني شـاءت الأقدار السـمـاوية وسوء الحظ ان يعيش في صنعـاء القرن العشرين وليس في القرن الرابع عشر.

وإضافة الى الخشوع والشعور بالمواطنة أظنني بكيت لأنني من برج الحوت.

لم أتمكن من التلويح بيـدي لاقـول وداعـاً صنعـاء، لأنني لا أملك أن أُغـادرها مـتى شـئت ولأن صنعـاء القديمة لاتقبلني ضيفاً وصنعاء الجديدة لاتكف عن القبح والدموع.

صعدة

ميراث الغضب...

من الدويلات إلى الجماعات!

غالباً ماتخبرك صعدة أن الأحكام المسبقة على الأشياء عادة سيئة ويجب التخلي عنها.

إذ غادرت صنعاء وأنا اختصر صعدة في التصحر وقطاع الطرق، صحيح ان السائق توقف أربع مرات لإبراز هويته أمام رجال القبائل على أن القطاعات الأربعة كانت في محافظة عمران من نقيل الغولة وحتى حرف سفيان.

اقول للراكب جواري: ماذا يفعل العسكر إذاً، إذ أن بين كل قطاع وآخر نقطة عسكرية تبحث عن الأسلحة وبين كل نقطة وأخرى قطاع... هذه هي العمشية: مرتفع بسيط ينهي وحشة وضراوة حرف سفيان الطويل والمقفر..

ذكرتني العمشية بمصرع العقيد وزوجته وطفليه ومرافقيه عندما رفض منح قطاع الطرق (مصاريف) وهناك فارق بين قطاع الطرق ورجال القطاع أولئك ينهبون ويقتلون ورجال القطاع يبحثون عن سيارات قبائل معادية، وهي عادة قديمة قدم القبائل عادة ماتنتهي باحتجاز السيارة المعادية، وسائقها ومن ثم التفاوض بشأنهما أو إضافة الحكاية كلها إلى رصيد

الثأر.

العقيد والعمشية حكاية قديمة أخبرني عنها قريبي الذي سافر مع الرجل وحاول استرضاء قطاع الطرق غير أن العقيد تجاهلهم فأمطروا السيارة بوابل من الرصاص في حادثة أليمة لم ينج منها سوى قريبي الذي تظاهر بالموت.. ولا يزال إلى الآن يتظاهر بالموت كلماتذكر ابن العقيد: الطفل الذي ثقبت الرصاصة بين عينيه.. وعادة مايقول البعض ساخراً ومهدئاً للموقف «عيب عليكم: ماحناش في العمشية»..

ولعدة اعتبارات حاول أن تصل إلى صعدة قبل غروب الشمس وبالتحديد في الصيف حيث الموسم السياحي وإلا فلن تحصل سوى على غرفة في مبنى كئيب يطلقون عليه «فندق»..

لم يكن امامي خيار آخر، تجاهلت جيوش البعوض وحاولت النوم غير أن الصراصير التي تحب الظلام عاملتني وكأنني قطعة خبز ممزقة وبائته، ما أسوأ أن توقظك الصراصير في مدينة لاتعرف فيها احداً سوى المحافظ وخالد السفياني.

والثاني ضابط وصحفي يعرف كل شيء عن صعدة وهو كاهن معلومات وقبيلي من الطراز الأول أما

المحافظ فقد غادرت منزله معتذراً رغم ان لامحافظ في العالم يفتح بيته لليبرالي يراه لأول مرة، كان احد الصعديين قد اخبرني عن دماثة اخلاق المحافظ وصرامتها في أن واحد، وكيف تمكن من القضاء على القطاعات التي كانت تقام احياناً جوار إدارة الأمن..

عندما تسير في الشارع الوحيد الذي لا يختلف كثيراً عن شوارع بقية المدن اليمنية وتنتهي الى منعطف يفضي الى صعده القديمة ستصعد الى سطح القلعة الرائعة الايلة للسقوط.. يسمونها قشلة صعدة ومن سطحها سترى حجم الردة العمرانية التي يقترفها اليمنيون وستتمنى اقتلاع الشارع الرئيسي الذي يقتحم اللوحة المذهلة بفضاضة، ورش سيارات وأتربة ومحلات تجارية وزيوت وخردة في مدينة قال عنها (البرتو مورافيا) إنها من اجمل بلدان الدنيا وزارها عشر مرات.

عندما تصعد سلم القلعة كن حذراً وإلا وقعت في إحدى الحفر التي ستعيدك الى اسفل السلم..

القلعة محاطة بسور طيني ضخم مبطن من الداخل بالزنازين التي بناها المعتقلون اثناء تأدية ثمن تمردهم على السلطة.. ثمة غرفة (مفرج) تعتلي القلعة وتطل

على صعدة وتصلح للمقيل الاستثنائي.. مقيل قائد عسكري تركي أو إمام يمني ينظر من علٍ إلى الأرض والإنسان والمبنى ويشعر كم هي المسافة بعيدة بين الحاكم والمعتقلين.. الملازم أول (الهمداني) يشعر بالملل تجاه عمل يصلح لعسكري عادي إذ ان حراسة القلعة عمل مضجر للغاية..

قدم لي الرمان وقص عليَّ جزءاً هاما من سيرته الذاتية المليئة بالكفاح والآمال وانتهى كل ذلك الى الملل في مقيل يوشك على الإنهيار.. قلت: الأفندم من بلاد أحمد الغشمي؟ قال: جيران ولو ما قتلوهش الملاعين إن انا اليوم قائد محور.. مدينة خرافية ومن سطح القلعة أيضاً تفاجئك صعدة التي لم تر لها مثيلاً.. فن معماري من طراز خاص قطعة من ملامح ذات الأرض غير انها حولت ملامح الأرض القاسية إلى مدينة خرافية لا تشبه شيئاً أخر سوى صعدة.. بيوت متلاصقة متعانقة ذات ارتفاع متقارب متوسط اذ لابيوت شاهقة في هذه المدينة.. نوافذ كثيرة، ومزخرفة بأسلوب ذكي اقرب الى البساطة منه الى الفخامة..

ستغادر القلعة مهرولاً نحو قلب الزحام الجميل.. الأزقة ضيقة للغاية يمر منها الصمت والقطط الأليفة

والفضوليون امثالي امام ابواب مختصرة.. عندما تحاول اجتياز صعدة القديمة فلابد لك من دليل وإلا تداخلت الأماكن ذات النكهة الواحدة في وجدانك.. ذات الزقاق ينتهي الى طريق مسدود وعجائز يجلسن أمام الأبواب..

وبدأت الأسماء تميز بين الأماكن وبدأت صعدة تتمايز من الداخل بين بيوت القضاة وبيوت التجار والموظفين والأعيان.

فهناك شيبان ومسطلة والمسموط وحارة القصر التي كانت تجمعاً خاصاً بعلية القوم.. أما التوت وشيبان فكانتا للقضاة والعلماء.. تجمعات متماسكة تتباين في العمق وتشكل نمطاً حياتياً متقاربا تحيط به ثقافة واحدة وسور واحد هو أقدم الاسوار التي لازالت تقاوم الزمن إلى الآن.

قليلون جداً اولئك الذين تخطوا السور الطيني الى خارج الأزقة والألفة واقل منهم بكثير من حاولوا تخطي السور المذهبي.. عمره من عمر اول مسجد تحول الى مايشبه جامعة خاصة.. إنه مسجد الهادي الشهير الذي بناه الهادي يحيى بن حسين بن القاسم بن اسماعيل بن الحسن بن علي بن أبي طالب...

استفاد الهادي يحيى بن الحسين من نصيحة قديمة تجاهلها الحسين بن علي بن أبي طالب.. نصحوه بعدم تصديق أهل العراق وقالوا له: عليك بجبال اليمن فإن فيها شيعتك وشيعة أبيك..

غادر جبال الرس بالحجاز ووصل الى اليمن في العام ٢٦٤هـ واستطاع الحصول على بيعة قبائل همدان بن زيد المعروفة بولائها لعلي وآل بيته بالإضافة الى قبيلة الربيعة (سحار) من خولان ليقيم بعد ذلك اولى الدويلات المستقلة في اليمن ويؤسس لقراءة فقهية اخرجت اليمن من مسارها التاريخي الطبيعي الى الف عام من خصخصة الحكم والاقتتال لأجله.. ووحدهم اليمنيون من دفع ثمن كربلاء.

شكل الهادي مسجده البسيط الذي تطور فيما بعد وشهد توسعات عديدة منها توسعة علي بن الفضل وتوسعة الإمام علي بن شرف الدين وهو الذي أقام مقدمة الجامع المسمى (ذو النورين). وهو يشبه الجامع الكبير بصنعاء في شكله الرئيسي وهو المستطيلات التي تترك فيما بينها ساحة واسعة.

ونكهة المذهب والعمائم واللحى.. والى جوار المئذنة ثمة غرفة خاصة بضريح الهادي وبعض ابنائه

كالمرتضى والناصر.

وعلى كل ضريح يواجهك لوحُ حجري مكتوب عليه اسم الميت وتاريخ ميلاده ووفاته وبعض الادعية والأبيات الشعرية وهذه عادة في صعدة لاتزال قائمة إلى الآن.

وعلى الزائر ان يكون مهذباً ويقرأ الفاتحة على ضريح الهادي وابنائه ويقرأ إلى جوار الضريح..

إذا شاهدت نور ضريح يحيى
ملكت الخافقين بلا علامهْ
ويحيى وسلتي في كل امرِ
يلّم بنا إلى يوم القيامهْ

الشاعر مجهول وإمام المسجد مصر على قراءة «وسلتي» سلوتي مع انها واضحة (وسلتي) ولا أدري هل القضية في خطأ عادي ام انها كامنة في مسألة الوسيلة والخلاف الفقهي الدائر حولها.. ولقد لعب هذا المسجد دوراً هاماً في تشكيل ملامح الثقافة اليمنية، فإلى جانب التعليم المذهبي كان هناك السيرة والتاريخ والقرآن الكريم والأدب وحتى الفلك.

تعلم فيه جعفر بن عبدالسلام ٥٧٣هـ ومن قبله الحسن بن احمد الهمداني (لسان اليمن) ٢٨٠هـ ونشوان الحميري، والحمزة والمؤيد والداوري.. في

مسجد الهادي ومرفقاته عمائم ومصاحف ضخمة وتاريخ كثيف للعمارة والفقة والازياء وفيه حميمية تتمسك بك بصدق..

غطس في الذكرى

وفي مدينة مثل صعدة يذكرك كل شيء باهمية الماء.. لون ظامىء حد التخلي عن أشياء مهمة مقابل صوت الماء الفوضوي بين سقوطه على الأحجار بإغراء وبين حنانه في (المغاطس).

ربما يكون (المغطس) اسماً خاصاً بقريتي التي تذكرت مسجدها وبركها و مغاطسها حيث الكهول يتخلصون في المغطس من الظهيرة وكل ماهو قائظ..

دخلت احدها وبدأت التخلي عن ملابسي ووضعتها على الحاجز ودون أن أدري اسقطت عمامة جاري في مياه مغطسه.. شتمني بكل مصطلحات العالم واقتحم مغطسي عارياً كما ولدته أمه (لا أعتقد أن اماً ولدت شيئاً «معطفاً» قديماً لايخبىء سوءته بشيء ولايقبل الاعتذارات) تجاهلته ورحت اغطس في عطشى الى ذكرى القرية ونحن- أطفال- عراة تماماً نفر أمام شتائم العجوز حارس البرك والمغاطس.. كان يحمل ملابسنا أو يقذفها في الماء ويجوب بنا أزقة القرية عراة

فرحين ومطاردين..

وعندما وقفت في الصف لصلاة الظهر لاحظت انني لست الوحيد الذي يضم يديه في الصلاة، تجاهلت نظرات الاستغراب ورحت أحصي الضامين في الصف وكانوا خمسة أشخاص. كلهم إلى جانبي وتذكرتهم بعد ساعة عندما صادفني اثنان منهم في دكان القات.. المقوت من إب وهما كذلك من إب واكتشفت أن الايام تدفع باتجاه التسامح المذهبي النسبي وأن الناس مناطقيون رغم الأيام وإلا لما حصلت على حزمة قات مجانية..

مع المحافظ

وفي منزل المحافظ تجاهلت اللياقة ورحت اتعامل مع الغداء كمن يلتهم شبحا.. الرجل دمث الاخلاق وأنا لم اتناول شيئاً منذ المساء هو يتغذى مع مرافقيه حتى في الأعياد ولا يقبل دعوة أحد البتة وعندما سألته عن السبب قال: الناس هنا يولمون بكرم حاتمي غير أنني ساكون رجلاً سيئاً إذا ما رفضت «واسطة» رجل ضيفني او أخالف القانون وأرد ضيافته بإطلاق سجناء أو تقديم تسهيلات غير قانونية ولذلك اعتذر بشدة عن قبول الدعوات واقوم انا بدعوتهم..

وتشعب حديث المقيل في كل الشأن الصعدي من الأمن الى القبائل إلى الجماعات إلى مزارع البرتقال.

براءة اكتشاف

للشمس المبكرة في بيوت صعدة القديمة قدرة مذهلة على الرسم وإعادة تركيب اللون والإنسان والجدران... وللشمس قبل الغروب ذات العلاقة الخاصة مع هذه المدينة التي انوي تسجيل براة اكتشافها باسمي..

تدخل اشعة الشمس الاولى بين الجدران لتحيلها الى مايشبه مقبرة فرعونية ضخمة يسيل الذهب على زواياها.. وقبل غروب الشمس تتحول البيوت المزدحمه الى كائنات حية تستعد لاسترخاء غير مكلف.. اطفال يتحلقون حول شيخ طاعن في السكون.. إلى نساء يطمعن الحيوانات الخرافية اعشاباً صفراء.. قبل الغروب تتحول صعدة إلى لوحة سريالية لا تتذكر تفاصيلها وتعجز تماماً عن شرح المعنى غير نك تشعر بها وتدرك كم أنت جاهل وبارد و.. غريب.

وهكذا يتحول الطين الى خصوصية لانهائية.. الى ذاكرة بدائية.. إلى قرية تستعد للإفطار باللبن.. الى مكان مستحيل يختبىء في احلام اولئك الذين يمتهنون الخيال والبحث عن الامان في كان يستعصي

على تحديد ملامحه.

إبسط التشيع

أفكر في سوق الطلح وفي جبل أم ليلى وفي الجماعة والقبيلة ومن أين أبدأ؟ وصعده شيء قديم لا يمكن اختصاره والتخلي عنه لقد احتجزني السور ولم اغادر إلا بعدأن وعدت نفسي بالعودة إليه..

واخيراً خرجت من باب اليمن: فجوة في سور متين يحيط بالمدينة وهو أقدم الأسوار واخرها إذ انهارت أسوار المدن اليمنية وأعيد ترميم بعضها وسور صعدة لايعيبا بمئات السنين وهو إطار اللوحة الرائعة ذات اللون البني الفاتح وكأن المنازل صنيعة السور وكأن السور إبن المدينة البكر.

وبين الباب الغربي وباب اليمن أكثر من سبعة وعشرين مسجداً ظلت تلعب دورها في روح المدينة المذهبية ودفعها الى تصدير الفهم الخاص للعلاقة بين النص والتاريخ والحاكم.. وتحول الأمر الآن الى تشيع غير قابل للاستثمار السياسي، الناس هنا يتشيعون لآل البيت ولا يقبلون نقاش الأمر ولا يزالون رغم كل شي يجلون السادة احفاد النبي صلى الله عليه وسلم والأمر يتعدى السياسة والفقه إلى النبى ونقاء سلالته

إذ لا يمكن تأطير أهل صعدة في تنظيم سياسي يناصب أهل البيت العداء.

كما أن إنسان صعدة القبيلي لايجد فكرة (حزب شيعي) فكرة جديرة بالإهتمام، هو يحب آل البيت بطريقته البسيطة وإلا لكان حزب الحق قد احتكر صعدة كمنطقة مغلقة له.. ليبقى الأمر ميراثاً ثقافياً وبيئة صالحة لبقاء غلاة الشيعة ونشوء جماعة السلفيين وبينهما رجال القبائل الذين يهربون البضائع ويتناحرون فيما بينهم ويتفقون على احترام آل النبي صلى الله عليه وسلم والسلفيين في آن واحد.. فأولئك أحفاده وهؤلاء تلاميذه على حد اعتقاد يحيى ناجع جمعان الجلحوي.. وهو رجل في الخمسينيات ورث ولاءه للقبيلة من تكوينه النفسي وحبه للشيعة والسلفيين من نظامه المعرفي الذي لايجد تناقضاً في الأمر، وورث أيضاً اسماً موجعاً للغاية وحبا للأرض من بيئته الحدودية. يقول: الأرض تشبه العرض..

اين الشيخ مقبل؟!

ودعت (يحيى ناجع) ومشاكل الحدود والأرض والراتب الشهري ميمّماً تجاه الشيخ مقبل الوادعي..

والطريق إلى دمّاج ليس طويلاً.. هناك مسجد الوادعي وبيوت تلاميذه وأحذيتهم الضخمة وسراويلهم الطويلة..

لم اشأ الدخول في اشتباك بالأيدي مع الراكب إلى جواري في السيارة وأنا لم ارتكب حماقة ولم اقل ما يغضبه كنت فقط أدافع عن الصحفيين وأحاول إقناعه أنهم ليسو زنادقة .

حاولت نسيانه بعد مغادرة السيارة إلا أنه لم يغب اكثر من خمس دقائق ليترصّد لي أمام المسجد العملاق الذي يؤمه الشيخ مقبل الوادعي، ظننته يريد الإعتذار لكنه أمسك الكاميرا بقسوة قائلاً: ممنوع التصوير هنا إطلاقاً.. أعرف سلفيين كثيرين يسلفونني وأسلفهم أما هذا الشاب فشأن آخر.

المسجد كبير جداً وفي الزحام لا إجابة عن سؤالي اليتيم (لو سمحت يا أخي أين الشيخ مقبل؟) لا ادري لماذا لايجيبون؟ ولا يخلعون احذيتهم؟ وقفتُ في الصف حزيناً وحافياً لاداء صلاة الظهر، أمارس عادة سيئة في الحملقة في الوجوه قبيل كل صلاة... وجوه متوضئة تتساقط قطرات الماء من اللّحى الطويلة وتتبعثر على الاحذية الضخمة.

السوداني الذي داس على قدمي بعنف لم يكن يقصد ذلك بالطبع ولم يعتذر عندما تأوهت وتذكرت حذائي الذي في الشنطة إذ لم أجد المكان المخصص لوضع الأحذية.

ليس لي من صلاة ظهر لك اليوم إلا ما وعيته منها وأنا لم اعِ شيئاً البتة. إذ انشغلت بالحقد على الزول السوداني الذي فعص قدمي.

وبالبحث عن مصدر الرائحة الكريهة إلى حد ما في مسجد فسيح.. ليست رائحة عرق كما أن الاخوة السلفيين لديهم من الصرامة الفقهية ما يكفي لاعتبار الغازات الخارجة من بطن الضهيرة والقيظ مفسدة للوضوء ومن ثم الصلاة ..

إن الحكاية بسيطة وهي الاحذية التي يرتديها المصلون ولا يتحرون جفافها تماماً فيختلط التراب بالماء بالزحام ليتحول (الموكيت) الثمين إلى ما يشبه (وكر السنجاب) وبالتحديد عند السجود الذي يمعن الإمام في الإكثار من تسبيحاته ولو كنت إماماً في هذا المسجد لاكتفيت بتسبيحة واحدة في سجود مرهق.. إنهم يغيرون الفراش كل بضعة أشهر وبقية الأشياء لا يكاد يتغير منها شيء.

الجرح والتعديل

طلبة كثيرون بعمائم بيضاء مختصرة.. يشير لك أحدهم إلى البيوت التي يقطنونها.. إنها متواضعة بالفعل وهم راضون تماماً عن الحياة فيها مع نسائهم وأطفالهم.

تذكرت احمد وهو لم يتذكرني بالطبع إذ كان يرافق الشيخ مقبل في إحدى زياراته إلى إب.. وجه لا يمكن نسيانه أبداً.

أعدادهم كبيرة ورجال الخير قادرون على البذل والنبي صلى الله عليه وسلم كان إذا جاع (وضع على بطنه حجراً).

هؤلاء الشباب يحفظون الاحاديث النبوية بإسنادها ورواتها.. إلخ .. ومعظمهم يجيدون علم الجرح والتعديل.. وليس من العدل وصف هؤلاء بمجرد نسخ من (الصحيحين) يمكن استبدالهم بطبعة جديدة.. ومنقحة..

إنهم يتقشفون ويحفظون الأحاديث والآيات ولديهم من الروحانية ما يكفي للفرار من زحام الحياة والكفاح والمستقبل وبقية التفاصيل التي تعيد إنتاج الهاربين من الشباب وتصنع منهم سلفيين وحزبيين وبلهاء

ومفتريين و(قطاع عام)..

لم أتمكن من لقاء الشيخ مقبل الذي يعد بحق أكثر الناس حفظاً للأحاديث في اليمن وربما في العالم الاسلامي .

وهو يفهم النص كما هو ويأخذ بالأحوط دائماً.. يعيش حياة متقشفة ويحاول الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في مشيته المسرعة.. والرجل سريع الغضب وتصديق الشائعات والرد عليها ايضاً.. وهو يحرم الحزبية (وفي رواية) الديمقراطية ..

تعلم الشيخ مقبل في السعودية واتهم في أحداث (جهيمان) واختار صعدة لينتج حفظة الحديث بأعداد كبيرة وينفعل بسرعة بالإضافة إلى انه يشتم كثيراً ويروي عن (أم مالك) .

من يمكنه الإلمام بصعدة؟

تاريخ كثيف وعنيف افضى إلى قلاع وحصون ومساجد وجماعات.. أكثر من مائة وخمسين موقعاً اثرياً يزورها أكثر من ستة آلاف سائح أجنبي سنوياً.. لا يجدون سوى أسفهم إزاء الإهمال الذي تتعرض له تلك المواقع..

لقد قامت صعدة على انقاض مدينة (تلمص) ٣كم

جنوباً على سطح جبل تلمص ولا تزال صعدة تتذكر بأسى مافعله الجزار إبراهيم العلوي الذي قاد الجيوش العباسية في العام ٢٠٠هـ بعد تمرد القبائل الشمالية على الخلافة.

أحرق الجزار قاع الصعيد وهدم (سد الخانق) الذي كان يقع في العيدين جنوب صعدة والذي بناه الوالي الحميري (نوال بن عتيك) مولى سيف بن ذي يزن في الخنفريين . إلى أن جاء الهادي يحيى بن الحسين وأسس أول الدويلات المستقلة في اليمن وحارب القرامطة ومات تاركاً الجميع يقاتل الجميع في سبيل الإمامة لتتحول صعدة إلى ساحة صراع لايكاد يهدأ.. أثمر شيئاً وحيداً اعجبني وهو مقبرة القرضين الشهرية.. أعتقد انها من أروع مقابر العالم (وهل هناك مقابر رائعة؟) .

قال خالد السفياني : لم تعرف شيئاً عن صعدة إذا لم تزر المقبرة وعندما وقفنا في قلب المقبرة أدركت أن السفياني لم يكن مبالغاً..

مقبرة بعمر الموت

كأنهم متفقون على ممارسة الموت بطريقة واحدة وكأنهم ضحايا معركة واحدة انتهت إلى مقبرة تشبه

مقبرة العلمين في مصر.. وساحة شاسعة يمور في بطنها مئات الآلاف من الباهتين الذين تركوا على أضرحتهم ألواحاً تبعث على الرهبة مكتوب عليه تاريخ الوصول وتعريف بالنزيل...

يتجاوز عمرها عمر الموت في صعدة.. ألواح كتبت من قبل ألف سنة ويقال إن بعضهم تعرف إلى جده الأكبر عمرو بن معد يكرب الزبيدي عن طريق الألواح.

لاتزال الألواح تتكاثر مضيفة ارقاماً جديدة بأسلوب قديم ومتحضر يجعل الموت أقل غربة.. والقبورتكاد تتساوى غير أن علية القوم وسلاطينهم يتميزون بما يشبه القبة التي تحمي القبر من الشمس على حد زعمهم وإلا لما احتاجوا إلى القباب.. والسلطة دائماً تحرص على التميز حتى في الموت.

«الشباب المؤمن»

صعدة بؤرة صراع مزمن..

تشبه بركاناً عريقاً..

ومن الجاهلية وحتى ما بعد الحداثة وصعدة تضع الناس في ظروف حياتية قاسية.. وفي بيئة لاتكاد تكفي.. وتعمل فيما بعد على إعادة إنتاج أسباب جديدة..

كلهم يتكبدون خسائر فادحة وما تلبث بيئتهم أن تضلل الذاكرة الجماعية استعداداً لجولات أخرى..

في صعدة غلاة الشيعة وغلاة السلفيين.. وفتيان (الشباب المؤمن) وقدامى (حزب الحق).. حصافة الإسلاميين، وتعبوية المؤتمريين الذين تركوا القبائل والجماعات والأحزاب يمارسون سُنة التدافع الإنساني وحتى قبيل الإنتخابات البرلمانية قام المؤتمر بدوره كخازن بيت المال وأجل القبيلي تأويل النص إلى ما بعد صلاة العشاء وحصد المؤتمر صعدة بقيظها ونقائضها..

أما جماعة (الشباب المؤمن) الذين إنشقوا عن حزب الحق ويعلنون في كل مناسبة دعويتهم ولا حزبيتهم وأعتدالهم.. فهم أقل من حزب وأكثر غموضاً من جماعة.. يستقطبون ويتشيعون ويحاولون أشياء كثيرة والحكاية أكثر عمقاً من جماعة شبابية انشقت عن.. أو تحاول الإنضمام إلى ... إنها حكاية الشباب اليمني الذي لايبتكر ولا يحلم ولا يتفوق أو يكتشف..

أنثروبولوجيا الحدود

مجتمع صعدة بسيط ومعقد في آن واحد.. قبائل يعملون في التهريب والزراعة (والقبْيَلة) والتشيع والقتل المجاني..

خولان بني عامر ووائلة (وايلة) وبني هاشم (السادة) وبني (لم اتمكن من حفظه) واسماء غريبة ولهجة اسمعها لأول مرة وهي خليط من عدة لهجات أقرب إلى لهجة جنوب المملكة العربية السعودية..

في إحدى مراحل المفاوضات الحدودية اليمنية السعودية.. طلب الوفد السعودي تشكيل لجنة استشارية من قبائل الحدود (وائلة) و(يام) وبين هاتين القبيلتين قربى ومصالح وثأر مؤجل، وتجاهل للخطوط الدولية..

وعندما التقت اللجنة المشتركة من القبيلتين بالوفدين المتفاوضين أعلن حدوديو اليمن أن الأرض المتنازع عليها يمنية (وإلا لا ياوجيه يام؟) وأكد أحد اعيان (يام) صحة ماذهبوا إليه وعاد شيخ وايلة محمد بن شاجع ليقول أن الأرض تشبه العرض وإن الهبات المالية لاتعيد رسم الجغرافيا..

يتذكر احد عساكر الحدود القدامى تلك الأيام عندما كان يأتي (الدوشان) ليعلن: (إنتو يا الدولة وانتو يا لعسكر؛ يقول لكم الشيخ محمد بن شاجع مهلتكم شمس اليوم ترحلوا من بلاده وإلا..) .. وهكذا يحدث ان تتماهى الأرض في عرض واحد وتحتفظ القبيلة

بسطوتها التي لم تتخل عنها منذ آلاف السنين..

سلطة الشيخ

للشيخ في صعدة قبيلة تمنحه الولاء والقوة بلا حدود.. كلمته أخيرة لا تحمل النقاش وأحكامه نافذة لايمكن تأجيلها.. يستوى في ذلك الريف والمدينة وإذا احتكمت الى الشيخ فلا تحاول شيئاً آخر إذا ماشعرت بالظلم فهو سينفذ حكمه، لا محالة.

أخبرني احد الموظفين الوافدين الى صعدة انه وجد نفسه أمام الشيخ يسمع قراره المفاجىء بشأن (الأرضية التي اشتراها في مدينة صعدة.. لقد حكم الشيخ بالحاق ارضية الموظف باوقاف احد المساجد الذي تشرف عليه إحدى الأسر.. يقول: نصحني الجميع بالإذعان ففعلت ومن ثم ذهبت الى الشيخ و استعطفته فوعدني بالتعويض وها انا انتظر لأكثر من عام..

حكاية أخرى

تبرع أحد المشائخ بأرض صغيرة في صعدة لتبني عليها الحكومة أحد المباني.. وبعد بضعة اعوام استولى على المبنى بالقوة وذلك مقابل ايجار ارضه ومن ثم حوله الى فندق..

مهما بلغت صرامة قناعات المحافظ وحنكته التي

لايختلف الناس حولها.. فلايمكن إعادة تركيب منظومة القناعات الموغلة في القدم والسطوة.. لقد تمكن المحافظ من إزاحة فائض الأخطاء.. تنظيم عمل مكاتب الوزارات.. تفتيش عن الاسلحة في جولات المدينة.. محاربة الرشوة غير انه لم يتمكن من إقناع القبيلي بالتخلي عن الثأر والسلاح والتهريب والقتل.. نجح المحافظ في مجتمع محافظ حد المبالغة ولا يزال (السادة) من بني هاشم يحافظون على مظهرهم الجيد وحفظ القرآن وشعر الاحاجي والعمل في الزراعة والتهريب ..

برتقال واسلحة

حدث تغيير في موارد مجتمع صعدة وفي المهن التي يمارسها الناس.. فقد جذبت الزراعة أعداداً كبيرة منهم.. وتمتد حقول البرتقال والرمان في مساحات شاسعة خضراء تقاوم ضراوة البلاد وقسوتها.. وبنفس نسبة امتداد مزارع البرتقال والرمان امتدت مزارع القات والارض خصبة وتجود على الناس بوعود الأمان والاستقرار وتحاول فيهم استقراراً من جهة العمل واسباباً جديدة للصراع من جهة اقتسام الأرض وموارد المياه..

وهكذا تصدرُ صعدة إلى بقية محافظات الجمهورية برتقالاً وأسلحة وسلفيين ومتعهدي تشيع مزمن وبضائع مهربة..

إلى ام ليلى

اعتقد أن صعدة ابتلعت تاريخاً كثيفاً ونامت متخمة بالقلاع والمساجد والحفريات والنقوش والسدود والذكريات.. اكثر من مائة وخمسين موقعاً أثرياً معظمها في سبيله الى انهيار بعيد المدى.. وعلى بعد ٧٠ كم من مدينة صعدة شمالاً يقف جبل (أم ليلى) محتضناً القلاع والمعابد والنقوش والخراب الجميل..

تتداخل الدول والتواريخ والصخور والسياح وجبل أم ليلى الذي يذكرك بمراحل الصراع والقتال العقائدي والسياسي والعسكري عند اليمنيين، يرجع تأسيس مدينة (أم ليلى) إلى الأيام الاولى للدولة الحميرية ذات التاريخ الصارم المنيع..

أول من يقابلك هم الحراس ذوو الصفائح الفولاذية التي تصدم خيالك وتوقظ ذاكرتك المتعبة بعد الاف السنين من موتهم شرفاء داخل دروعهم..

تحصين بالغ الإحكام من خلال اختيار المواقع القابلة للاقتحام.. يتدرج التاريخ في جبل أم ليلى .. تتصاعد

الاولويات من نقاط الحراسة إلى السدود إلى القلاع إلى ثكنات الجند إلى مساكن رجال الدولة إلى... (قمة ام ليلى).

كتابات حميرية ورسوم وعول ربما كانت ترمز إلى قوة التحمل والقدرة على المبادره.. أطلال معبد وجدران مسجد تتحدث عن الانتقال العقائدي عند اليمنيين..

واخيراً.. (نص آم ليلى):

النص الأصلي: أتم/ أوجن/ اشعين/ خونن/ ج/ دون/ واعيش/ وست ذللن/ ضعن بن حبش/ مظاد/ أرضهمو/ بمقم/ إله/ مو/ عثتر/ ذرجم/ عشتر/ دح برن/ وعشتر ذليكون/ ولحي عثت/ إله خصفن/ وبمقم/ لمرهمو/ املك/ سبا/ دمين/ سخمامم/ رقعت/ ابراهمو/ اوحتمقموا/ كرفين/ يللم/ وهرن..

يعود تاريخ النص إل ماقبل الميلاد أيام الدولة السبئية وقد ترجمه المؤرخ حسين الشعبي على ان المعنى الإجمالي يقول:

النائب المعني عن ملك سبأ دعى ست قبائل للتواجد والحضور إلى قلعة أم ليلي المركز والجبل الحصين وذلك للإعانة بنقب وحفر بركتين أحدهما هران والأخرى يلمم وقد استجابت هذه القبائل ولبت النداء

واسرعت إلى حفر البركتين استجابة لنداء (ضعن بن حبش) والى ام ليلى، وقد تم تسجيل عملهم بالنحت في قمة الجبل شكراً لهذه القبائل والدعاء لحفظهم من قبل الآلهة وملك سبأ وبني سخيم وآلهة خصفان.

(لا ادري من أين جاءت التسمية (أم ليلى) ولا أستطيع تسمية صعدة وتحديد نقاط التماس بين الدولة والقبيلة.. بين الدين والجماعة بين القيظ والتاريخ.. بين إنسان وآخر ذات الوجوه والملامح الحادة حيث الفك الأسفل العريض والحدقات الهائلة والنظرات الصارمة.. يستوى في ذلك قيم جامع الهادي- ويحيى ناجع- وجرمان محمد جرمان رجل الأعمال الذي ضيفني بغداء نصفه لحم والنصف الآخر لحمٌ أيضاً.. وكنت قد سمعت قبلها عن جرمان وكرمه وعطفه على المساكين والغارمين وعابري السبيل وكنت في سبيلي للحصول على منحة جرمانية غير اني قلت لنفسي : (يارجل- امنا بالله عيب عليك- أتبيع ماء وجهك بعرض من الدنيا قليل ؟) وهكذا غادرت بكرامتي بيت ملياردير شهم تنقصه خوذة فولاذية وريشةً على صدره حتى يصبح نسخة من زعماء التاريخ الأسطوريين....).

تعز.. محطة سفر ترتب عليها مدينة

لها رقة أنثى وقلق شاعر
وتاريخ لا تدري كيف توظفه

تعز.. مدينة صنعتها الجغرافيا وأخفق معها التاريخ. بالامكان اختصار قصتها في (محطة سفر ترتب عليها مدينة). تعز وسيط حاذق يروج لجديد الأفكار والأحداث ولا يدري لحساب من؟

إنها.. مدينة التناقض والثقافة والتمرد وجيوش الخريجين والمنظرين والاهم من ذلك كله.. الأسنان الملاحة. قال عنها (سكوت): (تعز: ملكة الجنوب العربي) ويقول ابناؤها: تعز بيئة طرد مركزية.. في حين تبحث عن شيء تقوله.

إنها مسكونة بالتناقض والتجريب. لديها رقة انثى وقلق شاعر وتاريخ لاتدري كيف توظفه.

وعندما حاول أحد ابنائها الشعراء إيجاد علاقة بينها وبين تاموز (آلهة حوران) كان يعتمد في ذلك على الأسطورة.. الأسطورة فحسب..

(بابا هايل)

كانت تعز بالنسبة لي (مدينة الاحلام) التي تتكدس فيها الشوكلاتا وعلب البسكويت بالإضافة إلى الصبايا الإنيقات.. كنت طفلا عندما كانت تعز كذلك.

كبرت قليلاً واصبحت تعز مدينة طبية ضخمة لانني

لم ازرها إلا مريضاً او بصحبة مريض.

ثم تحولت تعز الى بؤرة للافكار والخلايا التنظيمية واخيراً تعز مدينة التجريب والمثقفين وجيوش المتعلمين و... الخ، اما الآن فلا أدري بالضبط عن أي تعز سأتحدث.

ها قد تجاوزنا مطار تعز في الحوبان وبدات مباني مصانع (الحاج هايل) تتجاوزنا. رحم الله الحاج هايل سعيد الذي اصبح جزءاً من تاريخ تعز وعلماً من أعلام اليمن.

بدا تاجراً صغيراً في عدن أوائل الثلاثينات، دكان صغير يبيع المواد الأستهلاكية وبالأمانة والصبر تحول إلى تاجر جملة.. الصبي الصغير الذي كان الحاج يعتمد عليه في البيع والشراء أصبح الآن رئيساً لمجلس إدارة أكبر مؤسسة إقتصادية في اليمن (انه علي محمد سعيد رجل الاعمال المعروف وأول وزير صحة في حكومة الثورة). مصانع وشركات مساهمة تعتمد على اكثر من خمسة الاف مساهم وتستوعب عشرات الالاف من الايدي العاملة اليمنية.

كان الرجل الطيب ينظر الينا من خلال كل نافذة في

كل مبنى من مباني شركاته يعرف الجميع سماحة الحاج هايل وتواضعه، بالنسبة لي كان هايل ولايزال يمثل الرجل الطيب الذي يرتدي الملابس البيضاء ويوزع الشوكولاتا على الاطفال إنه (بابا هايل) الذي احلم دائما بانه سيمنحني قطعة شوكولاتا ضخمه على هيئة (مليون ريال) هي قيمة جائزة مؤسسة السعيد للعلوم والثقافة عن عمل سؤنجزه بعد عشرين عاما من الآن.. واذا انقرضت هذه المؤسسة لسبب أو لآخر فساحمل كتابي المحتمل واقرؤه باكياً على ضريح (بابا هايل).

عشوائية وعطش

تعز يمكن قسمتها على أثنين. المدينة القديمة- ومدينة التلال. ومن خلال نظرة أولى لتعز ستعرف لماذا قال عنها البعض انها(نفر كرس) إذ أن معظم تعز تلال صغيرة يخترقها شارع رئيسي اسمه شارع جمال، تتفرع منه بعض الشوارع التي تقف فيها الحركة تماماً اذا ما انقطع السير في شارع جمال. (في أوله أو آخره بالتحديد).

تخطيط سيء للغاية، مدينة مكتظة تقوم حركتها على شارع واحد طويل ومتعرج.

كان الشاعر الشاب احمد الشلفي في استقبالي فهو معرفتي الوحيدة في تعز اخذني الى بيته ذي الغرفة الواحدة منحني صحبة ومعرفة ومعلومات عن تعز وقصائد رائعة. هذا الشاب جزء من حركة شعرية شبابية تعيشها اليمن وتفلسفها مدينة تعز..

اول مشكلة واجهتها في مدينة تعز هي شحة المياه، وهذه المشكلة يعيشها أبناء تعز منذ عدة سنوات، معظم الآبار الأرتوازية جفت، ومحاولات إيجاد بدائل للآبار القديمة تفشل في منتصف الطريق لإسباب عدة اولها غياب الروح الجماعية.

الناس هنا يشترون الماء يوميا مما اضاف إلى أعبائهم المالية عبئا جديداً، وكثيراً ما خرجت مع صديقي في ساعة متأخرة من الليل بحثاً عن المياه.

تاريخ يبحث عن وظيفة

صباح اليوم التالي، وجدتني أقف أمام (باب موسى) مدخل المدينة القديمة.. يقول صاحب كتاب (مراة المعتبر في فضل جبل صبر) ان ماتعرف به تعز الآن كان اسمها (عدينة) وهي المدينة التي يحيطها السور ويقع فيها جامع المظفر، أما تعز الحقيقية فهي القلعة التي يطلق عليها الآن (القاهرة).

في عام ١٧٦٣م زارها (نيبور) ورسم لها خطاً بين بابي المدينة الرئيسيين وهما باب الشيخ موسى والباب الكبير.

وذكر نيبور ان المدينة مسورة بسور من اللِبْن..

لا أدري سبب تسمية باب موسى، الا انني تجاوزت الباب بحثا عن الانسان الذي رفض مغادرة الباب وتمسك بالحارات الضيقة ورائحة الماضي، كان عليّ تناول الإفطار أولاً، وليس هناك ما يسيل اللعاب كما يفعل فول اسماعيل واولاد اسماعيل يطبخون الفول على نار الحطب ويعدون (السحاوق) على الطريقة القديمة بـ(المسحق) تشعر وكأنك في بيتك في القرية، تجد في فول اسماعيل حذق البيت القديم ونكهة العائلة اليمنية..

الحارات الضيقة جعلتني ادور حول نفسي فكثيراً ماوجدتني اعود الى نفس المكان لالتقي نفس السؤال على مجموعة من الكهول الذين ذكروني بكهول عدن.. بسحنتهم وملابسهم.. لو سمحت ياحاج أين جامع المظفر؟ كنت اطرح السؤال على أي انسان الا على الاطفال فقد سمعت أنهم عدوانيون يقذفون الغرباء بالمخلفات، يدخنون السجائر ويسخرون من المارة،

ولذلك فغالباً ماسمعت عن (الجحملية) ونزق فتياتها.

ربما يكون أحدهم قد قذف أبا عبدالله الجندي ببيضة فاسدة فقال في كتابه (السلوك في طبقات الأمراء والملوك) عن أهل تعز: (أبناء تعز لديهم استعداد للفوضى والبطش متى كان ذلك ممكناً).

وجدتني اقطع سوقاً طويلاً معظمه ملابس وصيارفة (الصيارفة في تعز اكثر من قنوات الصرف الصحي).

ارهقني البحث عن تاريخ يمكن فلسفته وتوظيفه في قصة هذه المدينة.. كمحاولة لاستنتاج الوضع في تعز.

غير ان الاحداث وازمنتها مزقتني ولم اتمكن من الامساك بشيء من نتائجها وتراكماتها.

اعتقد أن التاريخ تعاطى مع تعز باعتبارها محطة سفر اغتسل فيها واستبدل ملابسه ومضى بعد أن تخلص من أتربته ودفع مقابل ذلك اسواراً ومساجد ومدارس أو كدليل بانه مر من هنا.

من خلال لقائي ببعض الناس وقراءتي عنهم (أبناء تعز القديمة) وجدتهم نتاجاً لعلاقات عابرة بأكثر من ثقافة وأكثر من حدث.

لم يترتب على المدارس (مذهبية) ولم ينشأ عن السور (مجتمعاً مغلقاً)..

هذا هو جامع المظفر اذاً. مسجد مهيب تشمر أمامه بسطوة بانيه، مسجد سياسي بكل ماتحمله الكلمة، طراز اسلامي خالص مع شيء من نكهة العمارة اليمنية بناه الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول، أحد ابرز امرا بني رسول الذين اتخذوا من تعز عاصمة لدولتهم (الدولة الرسولية ١٢٢٩- ١٤١٤م) أعاد بناءه عامر بن عبدالوهاب أبرز ملوك الدولة الطاهرية التي قامت على انقاض الدولة الرسولية، لم أتمكن من الدخول لرؤية المسجد من الداخل لأن الوقت كان مبكراً.

كان المطهر بن شرف الدين قد طرد الاتراك من تعز ودخلها في مارس ١٥٣٥م، ولأنه لايريد عودتهم فقد أمر ببناء سور عظيم يحمي تعز على انقاض السور القديم واضاف إليه الباب الكبير وبعض المنافذ الأخرى وظلت عملية البناء اكثر من سبع سنوات متواصلة.

وعندما عاد الاتراك بقيادة مصطفى بك عزت صدتهم أسوار تعز وصمدت أمام هجمتهم وكانوا قبلها قد أخضعوا كلاً من زبيد وعدن.

لازلت في تعز القديمة متنقلاً بين جامع المظفر ومسجد الأشرفية بقبابه الجميلة الرائعة.

الفوضوي، الباحث عن قبيلة مهاجرة

بين باب موسى والباب الكبير، بين الصيارفة والكهول العاطلين عن الحياة، ليس لهم من الواقع سوى الجلوس والقاء النكات البذيئة التي سمعتها بنفسي، ولديهم من الماضي ذكريات النزق والمخاتلة أو كلمات إنجليزية كثيرة ومعوز وفانلة بيضاء جلبوها معهم من عدن عندما كانوا يعملون في معسكرات الانجليز أو في متاجر الهنود أيام الاحتلال البريطاني.

اخبار المخاتل الفوضوي الذي نشأ في الجحملية واغترب في عدن هي التي صنعت صورة التعزي الصعلوك.. أقول صورة فيها مافيها من المبالغة والاجحاف بحق أبناء تعز عموماً، غير أنها تكونت بفعل النفسية التعزية المتمردة العطشى الى الجديد والاستثنائي.

غادرت كثير من الأسر التعزية اسوار المدينة القديمة وبدا الإمتداد العمراني يأخذ طريقه ابتداء من ١٩٤٨م عندما تسلم الإمام أحمد حميد الدين حكم اليمن وجعل من تعز مقراً لحكمه فازدهر فيها العمل والنشاط إلى حد ما، مقارنة ببقية المدن اليمنية، بالإضافة الى قربها من عدن الميناء العالمي المزدحم.

وأصبحت تعز منطلقاً للثورة ضد الإحتلال البريطاني. فنشأ وعي سياسي ترتب عليه انتشار للتعليم ومن ثم تحولت تعز إلى مسرح للعمل الحزبي.

فقد اتخذها عبدالله باذيب منطلقاً لنضاله ضد الإستعمار البريطاني وبيئة لنشر افكاره الماركسية.

ومن الملفت أن أول صحيفة يسارية يمنية تأسست في أواخر الخمسينيات في تعز (صحيفة الطليعة) في ظل وجود نظام يعتمد على الدين في مشروعيته امام الشعب عاد فيصل عبداللطيف الشعبي من بيروت بخلية القوميين العرب واستقر في تعز، وعندما طرد عبدالناصر الطلبة اليمنيين الشيوعيين من القاهرة عادوا الى تعز وبعدها قام بطرد الإخوان المسلمين فعادوا إلى تعز.

وهكذا أصبحت هذه المدينة مأوى للافكار والخلايا التنظيمية والجدل السياسي الذي لايكاد ينقطع.

وكأن تعز قد اختارت القبيلة العصرية أو كما يسمونها قبيلة القرن العشرين وهي الاحزاب كمعادل اجتماعي لقبائل المحافظات الشمالية ذات السطوة والانتماء.. واذا سألت أحد أبناء تعز عن إسمه.. سيخبرك إنه من قبيلة كذا الشمالية التي فر منها جده

الأكبر بعد أن قتل شخصاً عظيماً ولم يجد مفراً سوى هذه الأرض.

وكان لليسار الحظ الأوفر من زمن وإنسان تعز خلال عقدين من الزمن، ولايزال الكثيرون يذكرون بعض تفاصيل التطرف الحزبي في تعز من قبل بعض اليساريين الذين مزقوا المصاحف في حادثة لن تفارق الذاكرة بإعتبارها عملاً أكثر بدائية ورعونة من سلوكيات قبائل الأمزون.

تعلم الجميع في تعز وجربوا قدراتهم التنظيمية في تعز. وظلت تعز تستقبل الجميع كفندق كبير لا يشترط نوعية خاصة من النزلاء.

يكفي أن تعرف أن اسماء كثيرة من تعز قدمت لليمن افكاراً لم تعد تتذكر من اين حصلت عليها بالضبط ومصطلحات كثيرة وحزبيون لايحصى عددهم الا الله، وجدوا انفسهم الآن بحاجة ماسه الى الكلاسيكية الاجتماعية فعاد معظمهم للبحث عن فرصة في المشيخ والسماطة الرشوان، ناهيك عن التقدميين القدامى الذين امضوا سنوات في صراع مع الافكار القديمة واصبحوا الآن ملاحقي عفاريت يطاردونها في رؤوس لم يعد فيها سوى الجان.

غادرت المدينة القديمة من حيث دخلت. باحثاً عن ربوة عالية احاول من خلالها احتواء هذه المدينة أولاً ومحاولة تصنيفها ثانياً.

قلعة الرعب

إني اتجهت كانت قلعة القاهرة تلاحقني وترفض تأجيلي الحوار معها باعتبارها اقوى ذاكرة لازالت تقاوم التحولات والاحزاب وتتدخل في تفاصيل حياة ابناء هذه المدينة الذين يكرهون هذه القلعة لأسباب امنية بحتة يقولون ان اروع مكان في تعز هو القاهرة لانه المكان الوحيد في تعز الذي يمكنك الجلوس فيه دون ان ترى القاهره.

يحتضنها جبل صبر بدون حميمية وكأنه تبناها مكرها. قلعة تاريخيه ورهيبه تحتل قمة تلة حمراء (يفسر احد مثقفي تعز هذا الاحمرار بانه تكون من دماء الضحايا الكثيرين الذين لقوا حتفهم في القلعة).

بناها السلطان عبدالله الصليحي (الدولة الصليحية ٤٣٩- ٥٣٢هـ) تعاقب عليها الامراء والسلاطين والضحايا. فمن الصليحيين الى الرسوليين والطاهريين والاتراك وقبلهم مماليك مصر.

لاتزال أنات الضحايا الذين قضوا بداخلها تتردد في جنباتها إلى الآن ولا زالت دموعهم تسيل على قضبان نوافذها.

يتذكر التاريخ اولئك الذين قذفت بهم القلعة خارجها بامر من القائد التركي حسن باشا بعد ان امر بوضع السجناء داخل اكياس وقذفهم من فوق الاسوار (لايزالون يتدحرجون «هكذا خيل إلي»).

كانت القلعة تلاحقني باصرار بعث في جسدي قشعريرة غريبة.. تاريخية وعريقة وآية في البناء الحربي غير انها بمنظرها وبتاريخها تبعث على الإشمئزاز.

وعندما نظرت نحوها للمرة الاخيرة قبل حلول الظلام كانت نسخة من قلعة (الكونت دراكيولا) مصاص الدماء.. الشاب الوسيم ذي المخالب والانياب الذي يتسلل في الظلام بحثاً عن وجبة عشاء حمراء طازجة.

كان ابرز دور لعبته القلعة هو تدخلها في ثورة ١٩٥٥م التي قادها الثلايا.. وبدهاء (احمد ياجناه) وبذهبه وطمع قائد القلعة (المحجاني) تحول مدفع القلعة من صف الثورة الى صف (الثورة المضادة) كما يقول الرفاق مثقفو الثورة الاشتراكية وتحول مبنى القيادة الى أتون

يصهر جماجم الثوار وإمامهم الدستوري (السيف عبدالله) ويصهر أملاً كان يحاول النجاة فقط، وتحول الحدث الى (انقلاب فاشل).

فهذه المدينة القديمة باسرارها واسوارها بصدق مشاعر اهلها ونزقهم، بالمساجد والمدارس، بالجحملية (التي لم تعد مشاغبة ولا عدوانية وتحاول ان تبدو متحضرة) بالقلعة القاهرة وفظاظتها التاريخية.

كل ذلك يحاول اقامة علاقة مع احياء جديدة كانت مضرب المثل في النظافة وتحولت الآن الى قذارة بعينها بالزبالة المتراكمة والمجاري الطافحة.

ورغم كل ذلك ستجد (ثعبات) حي الارستقراطيين الجدد (لا يوجد في القاموس الاجتماعي طبقة بهذا الإسم).

هذا الحي يعادل (حدة) في مدينة صنعاء غير انه قريب من الاحياء الفقيرة بصورة تجعل الفوارق الاجتماعية نتيجة طبيعية لعلاقة بين حي قديم قذر للغاية يسكنه الكهول والموظفون التعساء والاسر ذات الدخل المحدود وبين حي يسكنه دخل ليس له حدود تشكل على هيئة فلل صغيرة انيقة هادئة تفصل بينها الشوارع الضيقة الانيقة النظيفة.

بين ثعبات وبقية أحياء تعز الشهيرة فارق كبير وبين تلة وتلة شارع محفر ومجار طافحة ومتسولون وتجار ومرارة شديدة واذا: تعز ليست كما كنت احلم. ليس فيها سوى اسئلة وحاضر مغلف بالثقافة العابرة، حاضر تبرأ منه ماضيه باعتباره زمناً لقيطاً.

ابحث عن جغرافية مدينة تعز فلا اتمكن من فهم اسماء المناطق الرئيسية إذ انها لا تميز عن بعضها كثيراً (غير تعز القديمة) فهنا (التحرير) وفي الجهة الاخرى (عصيفره) والى اقصى الجنوب (بير باشا)، أحياء عادية جداً، اناس ودكاكين واتربة وقمامة ومجاري طافحة.

معظم سكان المدينة (الجديدة) باعتبارها بنيت حديثاً.. ينتمون الى الحجرية وشرعب، اما ابناء تعز الأصليون فهم مميزون باجسامهم المختصرة الممتلئة وببصمة المياه المالحة على اسنانهم.

كان الكاتب الشاب صاحب الاسنان التعزية كريماً عندما أولم لي فاهرس واعدس وطهيج وسهيج واشترى القات وجمع عدداً لا بأس به من أصدقائه المثقفين.

جلسة قات يمكن اختصارها في مجرد جدل.. صحيح أنه جدل غير عقيم إلا انه ارهقني- فهؤلاء الناس

يريدون إقناعك بما وصلوا اليه ويصرون على ذلك بشكل عجيب، وذلك هو تاريخ تعز.. تاريخ جدل لاينتهي ولدد في الخصومة الفكرية وكما قال عنهم احد الزعماء اليمنيين: «كل واحدة منكم يريد ان يصبح رأساً». ولذلك تفشل كثير من المبادرات التنموية في تعز بسبب محاولة الجميع احتكار الانجاز لنفسه او لحزبه فيذوب المشروع في قرارة الاختلاف.

الشفاف.. صائد الثعابين

كنت بحاجة الى شكر عبدالحكيم هلال الشاب الذي ضيفني بالطعام والمجادلين الذين جادلوني عن اشياء لم اتمكن من استيعابها (الى الآن).

غير اني نسيت ان افعل فقد سيطرت علي خيالي صورة عين الاعيان وترجمان البيان الشيخ الصفي احمد بن علوان.. أهم أعلام تعز. الباهوت صاحب القلب الطاهر واللسان الذاكر، الرجل الذي إختار الحب الالهي والعناء الجسدي مقابل القرب.

هذه هي يفرس، تقع في جنوب غرب تعز، أول مايقابلك فيها هو مسجدها الأبيض الشهير الذي بناه عامر بن عبدالوهاب.

وأول ما يبادرك هو رائحة (الصفي) رحمه الله.. كان

متواضعاً من طراز خاص اخذ من كل مدارس التصوف مايناسب مذهبه الصوفي السني في آن واحد.

عاصر بعض امراء الدولة الرسولية وكتب قصائد يدعو فيها الى اقامة العدل ورفع الضيم والقهر عن الناس.. كثيرون من ابناء يفرس يتسولون بمشروعية قربهم من الشيخ.. لايزال الكثيرون من ابناء تعز وبقية محافظات اليمن يزورون قبره تبركاً به وفراراً من امراض خبيثة. ولايزال (صائدو الثعابين) يهتفون بكلمات وأوامر من احمد بن علوان.. فتخرج الثعابين مستسلمه ذليلة.. ولا احد يملك تفسيراً لاستسلام الثعابين بمجرد سماعها اسم الشيخ (هذا إن كان لديها قدرة على الاستماع).

احمد بن علوان ينام نومته الأبدية هنا خلف هذه القضبان الحديدية.. ثمة امراة كانت تعاني من حالة تشنج عصبي بينما ينادي اقاربها الشيخ يستعطفونه التدخل بينها وبين مرضها اللعين.. قبل دخول قرية يفرس وعلى بعد مئات الامتار من مسجدها حذرني بعضهم من الوقوع فريسة في ايدي المحتالين الذين يدعون قربهم من الشيخ وعندما وصلت المسجد وجدت من يحذرني من تصديق تحذيرات المحتالين الذين

يريدون تخويف المريض من مقيمي المسجد.

قات سورية

عندما عدت من يفرس كانت (سورية) تستقبلني في تعز بوجهها الإنساني البريء ضحكت سورية عندما سمعت تفاصيل سذاجتي في يفرس واحترمت مشاعري تجاه الشيخ الذي زلزلني تماماً..

لاتعرفون بالطبع من هي سورية.. إنها الفتاة الصبرية ذات العينين الصافيتين الفتاة التي تبيع القات الصبري الشهير.. تجلس تحت مظلة عتيقة وتمارس مهنتها بحنكة وثقة تزلزل جبل صبر.

أما لماذا اطلقت على نفسها اسم سورية فهذا مالم اعرف لانني لا أريد ان اعرف اسمها الحقيقي الذي لن يكون بالتأكيد بنفس ايقاع هذا الإسم الرائع سألتني سورية عن موعد عودتي لزيارة تعز مرة اخرى رغم انها لم تتعرف إليّ سوى قبل ٢٤ ساعة، إنها تصنف الناس وتتعاطى معهم بأسلوب متحضر.. كنت يومها أبدو مثقفاً بفعل أجواء تعز فعاملتني على هذا الأساس.

ما ألذ قات صبر وما أجمل زي جبل صبر: الثوب ذي الأكمام الواسعة، وعصابة الرأس الجميلة والأروع من ذلك كله سوريّة بائعة القات...

عـــدن:

اكثر من مدينة...... واكثر من ثقافة

هذه هي عدن.. عدن.. المدينة المجزأة التي تجعلك غير واحد، ظلت حلماً يراود الغزاة والشعراء والهاربين والثوار، ولذلك إختارها قابيل مفراً بعد ارتكابه اول جريمة قتل في التاريخ. ولذلك فكل شيء في عدن مركب من اكثر من حضارة وذوق. ومن الانسان الى المبنى.

هرولة البحث في قلب الزحام!

كنت قد بدأت احتفائي بعدن بمجرد نزولي من السيارة، وكان الناس قد بدأوا بتسديد النظرات المستغربة لرجل يرتدي الجنبية في مدينة كهذه التي لاتعترف بغير البطنلون او المعوز.

اول من يستقبلك هو الشيخ عثمان بزحامة الشديد بالباعة المتجولين وتجار الخضروات والفاكهة. إنها منطقة ليس فيها سوى الزحام وجامع النور الشهير، واذا اردت اكتشاف عدن فأمامك بضعة كيلومترات حتى تعرف ماتريد.

ستجتاز طريقاً جميلا الى الدكة التي لاتزال تحتفظ بموقعها التجاري لقربها من الميناء، في الدكة لاتجد غير رجال الاعمال او الحمالين.

وهي التي ملأت جيوب الكثيرين وقوست ظهور

الكثيرين ايضاً، انها المنطقةالتي يتضح فيها الفارق بين الناس.

هنا تقع مخازن اكبر الشركات المستوردة لكل شيء، ولذلك فالحمال هو الجزء المكمل للصورة.

عندما جلست اليهم أدركت أنهم ليسوا مجرد أنوف ضخمة وظهور قادرة على التحمل..

معظمهم من «إب» و«تعز» جاء آباؤهم أيام الإحتلال واستمروا هم في نفس المصير.. لهم أحلاماً كبيرة وليس ادل على ذلك من تعاونهم مع عبدالسلام زميلهم في العمل الذي أنهى دراسته الثانوية وانضم الى طلبة الجامعة بعدما قاموا بجمع التبرعات فيما بينهم حتى يتمكن عبدالسلام من اكمال دراسته، إنهم يبحثون عن التغيير عن طريق عبدالسلام والى هنا لازالت عدن طعماً لم تتذوقه بعد.

ستجتازون معي بعض المباني الحديثة التي تحاول تسلق الجبل وبعدها..

قبل ان اغرق في تفاصيل هذه المدينة المجزاة كنت قد حاولت احتواء المدينة في وجدان واحد ففشلت.

أروع مافي عدن انها أكثر من مدينة واحدة، إنها ترغمك على الحيوية والشوق.

الدكة هي أول ما يحاول تشتيت ذهنك، انها الجزء الأول من المعلا بعدها ستمر بالمباني المكعبة التي بناها الإنجليز وسميت فيما بعد شارع مدرم وفي الشمال يقبع ميناء عدن.

لا تشعر بالرتابة فبعد قليل ستحتضنك التواهي بالكنائس والمساجد والرائحة البريطانية حيث المباني ذات الأسقف المثلثة، لقد حاول البريطانيون نقل كل مايعز عليهم الى عدن حتى ساعة بج بن.

هذه المنطقة التي تقع بعد المعلا بقليل إنها غرب المدينة تماماً، كان البريطانيون قد اتخذوها مقراً لشركة الهند الشرقية وحصلوا على امتياز يمنحهم البناء والحياة في هذه المنطقة التي تسمى فتح، الشوارع ضيقة نسبياً لكنها منظمة بحيث يمكنها إمتصاص الحركة وتنظيمها.

كان ذلك عام ١٨٠٢ حين وقّع احمد عبدالكريم العبدلي معاهدة مع (هوم بوبهام) ممثل شركة الهند الشرقية بفتح ميناء عدن امام البضائع البريطانية ومنحهم هذا الجزء الرائع من المدينة حيث الساحل الازوردي الجميل الذي يتجاوزروعة وجمال سواحل الريفيرا الفرنسية.

انا لم أر الريفيرا، إلا انني سمعت عن جمالها وحاولت ايجاد مقارنة بين ماسمعت وما رأيت فدوخني هذا الساحل الذي لا أدري لماذا سميته لازوردي رغم جهلي بمعنى الكلمة إلا أنهم عادة مايصفون السواحل الجميلة بهذه الصفة فقلت: لازوردي. ستلتف بك السيارة عبر طريق مرتفع نسبياً نصف دائري تماماً لتدخل نفقاً صغيراً يفضي الى الساحل المسمى «جولدمور».

كان هذا الساحل مملاً لأن الأمواج كانت ميتة تماماً.

بعدها ستجتاز نفقاً طويلاً يعود بك الى المعلا عبر الطريق العلوي الذي يقودك إلى بوابة عدن انها كريتر حيث كل شيء كثير: الناس والمباني والشوارع والزحمة حيث المعابد والكنيسة ومعهد البيحاني والصهاريج وكل شيء تريد معرفته عن عدن، ستعود الى النقطة الاولى عن طريق خور مكسر. وعندها ستكون قد كونت إنطباعاً اولياً مزدحماً عن مدينة جمعت التاريخ والفن والفلسفة والدين والسياسة في شبه جزيرة واحدة ليمنحك رئيس التحرير خمسة أيام ترصد فيه حال المكان.

كريتر.. التاريخ المتداخل

ستمر من تحت الجسر الذي كان يربط بين جبلين:

الجسر لم يعد موجوداً لكنك ستمر من تحته لتدخل الى كريتر من المنطقة التي كانوا يسمونها بوابة عدن.

وستبلعك المدينة التي جمعت الدنيا والحضارات في تضاريسها وأرغمت الجميع على الاعتراف ببعضهم والتعايش حتى إشعار آخر.

فالمباني هنا خليط من المعمار الهندي والبريطاني واليمني والصيني. هذا هو قلب عدن بكل مواريث السياسة والاقتصاد والثقافة.

انها كريتر حيث «معبد البينيان» (احدى الطوائف الهندية) كانت شركة الهند الشرقية التي اضطرت البريطانيين لاحتلال عدن عام ١٨٣٩م قد حملت معها الموظفين والتجار الهنود الى عدن وكانت السياسة للانجليز، والعمل الاداري والتجارة للهنود الذين بنوا هذا المعبد في بطن الجبل (شمسان) حتى يمارسوا فيه طقوس ديانتهم.

وفي كريتر مبنى كنيسة قديمة وفيها أيضا جامع العيدروس، كان هذا الجامع مزاراً للمسلمين يتبركون فيه ويتوسلون قضاء الحاجات وشفاء الأمراض على انغام الموسيقى التي تعزفها الفرقة النحاسية، اما الآن فقد اختفت هذه الطقوس الموسيقية. وفي وسط

المدينة يتربع منزل الشاعر الفرنسي رامبوا منزل يتكون من ثلاثة طوابق، كان الطابق الأول يحوي صوراً تشكيلية، لوجه الشاعر رسمها له احد الفنانين الفرنسيين وبعض كلمات رامبو منقوشة على خشب بشكل قمرية.. رامبو الذي كانت باريس تضغط على اعصابه بابتذالها فحاول الفرار بحثاً عن البدائية والوحشيه.

وبالنسبة لشاعر مطارد بمهانة الشذوذ والسأم فلم يكن أمامه سوى الهمجيه، باعتبارها الملاذ الأخير..

وأمام المنزل ترتفع منارة عدن الشهيرة التي كانت جزءاً من تاريخ عدن الفني والمعماري وهي ترتفع لأكثر من عشرين متراً.

وأروع مافي كريتر، قصر السلطان فضل بن عبدالكريم العبدلي سلطان لحج وهو يتكون من طابقين، وهو بحق تحفة فنية رائعة بني في الفترة من ١٨١٨م الى ١٨٢٤م وقد تحول الى متحف للآثار، في الطابق الاول تجد الآثار القديمة للدويلات اليمنية وللقادة التاريخيين لهذه الدويلات التي قامت في أقصى الشمال والشرق.

وفي الطابق الثاني من القصر وجدت آثار الصناعات

الحرفية والعادات والتقاليد.

فهنا ملابس العروسة ذات اللون الاخضر، كل شيء أخضر حتى الحذاء كان اخضرا.

هذه الملابس ذات اللون الأخضر تحاكي كثيراً ملابس الزواج عند الطوائف الهندية.

في هذا المتحف تجد الطبلية والمقاعد الخشبية الصغيرة، هذه المقاعد والطبلية كانت هي السفرة التي يتناول عليها سكان عدن طعامهم..

إنه متحف الموروث الشعبي الذي اعيد افتتاحه عام ١٩٩٥م.

كان مدير المتحف قد سألني: تقول ليش يحطوا مرايات في سرير النوم؟ نموذج لغرفة نوم متكاملة مغطاة بالناموسية وغنية بادوات التجميل من المكحلة الى الورس.

هذا الطابق من القصر كان في الأصل محتويات متحف الطويلة وهو تاريخيا أول متحف في الجزيرة العربية أنشيء عام ١٩٣٠م.

كان سلطان لحج العبدلي قد غادر هذا القصر هو وأسرته في ١٩ يناير ١٨٣٩م بعد أن وقع على معاهدة أملاها عليه البريطانيون في ٢٢ يناير ١٨٣٨م، تنص

على تنازل العبدلي عن عدن للبريطانيين لكنه اشترط الاحتفاظ بحقوق السيادة على رعاياه في عدن فلم ترض بريطانيا بهذا الشرط وأقدمت على إحتلال الميناء عسكرياً مماأدى الى فرار السلطان الى لحج.

بعد أن أصبح ثغر عدن في قبضة الانكليز فتحوه امام الجميع وازدحمت المدينة بالتجار الهنود والعمال القادمين من محافظات الشمال وتحديداً إب وتعز والباحثين عن حياة افضل وفرص ربح أكثر ضماناً، وكان للباحثين عن العلم أماكنهم الشاغرة.

كانت عدن بعد الاحتلال غاصة بالعمال والتجار والطلبة والعلماء والفنانين، فازدهرت التجارة ونشطت مراكز العلم والدعوة والفنون.

لم أكد اصدق أذناي وأنا اسمع الدور الثقافي الذي لعبته مكتبة عبادي في سوق الطويلة حيث كانت مكتبة وداراً للنشر وملتقى أدبيا وفكريا متميزا وهي تاريخيا اول مكتبة في الجزيرة العربية.

ميراث الحروب

موقع عدن هو الفاعل الحقيقي للتحولات الاقتصادية والاجتماعية بالوسيلة السياسية عندما تكون سياسياً تبحث عن موارد وممرات ستفكر كثيراً في

عدن التي أسالت لعاب البرتغاليين فبدأوا محاولاتهم لمغازلتها عن بعد فاحتلوا بعض الجزر القريبة منها.

وبعدها جاءت شركة الهند الشرقية اضخم مؤسسة اقتصادية تمثل مصالح الامبراطورية التي لاتغيب عنها الشمس، فاقتحمت المدينة بعد مقاومة شديدة من أهلها واخضعوها لنمط تفكيرهم، فعلمتهم عدن أشياء كثيرة في الدين والفكر السياسي والتنظيم المسلح من ١٨٣٩م وحتى ١٩٦٣... بمصالح القوى الدولية أصبحت هذه المدينة ثاني اهم ميناء في العالم في الخمسينات وبداية الستينات.

إنطلقت شرارة الثورة ضد الإنجليز من أكثر من جهة إلا ان الجبهة القومية كانت الاكثر وعيا بالدورالإعلامي وتمثيل الثورة فشاركوا في العمل المسلح بعد أن تبنوه إعلامياً واقتحموا عدن بقوة الجميع وحكموها منفردين.

وظلت عدن إغراء لايحتمل الشركاء فبدأت التصفيات بين الجبهة القومية وخصومها من قيادات العمل المسلح ممثلة بجبهة التحرير فسالت الدماء من جديد والمدينة تنتظر الأقوى فقد إعتادت الحروب وصبح الدم شيئاً يتكرر ويفقد قدرته على إثارة

الاشمئزاز.

هذه المدينة وجدت نفسها في مازق التباين بين المصالح غير القابلة للتأجيل من اكثر من قوة عالمية مدفوعة بقوانين الاقتصاد.

عدن لها مزاج شاعر قلق فهي تمل بسرعة وتتقزز من تكرار الأسلوب.

حكمت على أبنائها بان يظلوا بعيدين عن لعبة الحكم والتنظير.

وظلت تستقبل الجميع وتقوم بفرزهم الى شعراء ومتسولين وتجار وحمالين وساسة.

لم يكونوا يملكون قولا جديدا لعدن ولبعضهم فانفجر الجميع بالجميع واستيقظ العالم في ١٣ يناير ١٩٨٦م على قصة جديدة من مآسي عدن.

كان الوافدون القدامى الذين تحولوا الى ساسة قد استنفذوا كل مالديهم فرحلوا وبقيت عدن تنتظر من يمكنه أن يقول شيئاً جديداً ومفتوحاً.

ورحلت قوة الضغط وبقي رجال الصف الثاني الذين رضوا بالوحدة مع صنعاء كآخر شيء بامكانهم تقديمه لهذه المدينة في عصر التحولات التي فاجأت العالم.

واسئلة أخرى عن معدلات الربح والخسارة.. وقراءة غير جيدة واستنتاج غير دقيق صنع حرباً جديدة هي حرب صيف ١٩٩٤م ولازالت عدن تستقبل الوافدين وتمنحهم فرصة ذهبية لفهمها كمدينة استثنائية مفتوحة.. ومدللة.

إفعل ماتريد الا العمل ضد الوجود البريطاني.

كانت هذه سياسة الإنلجيز في عدن. فقذفوا بكل شيء في جوف المدينة ولم يستبعدوا شيئا فنشأ مجتمع غريب. هو خليط من البرود الانجليزي والذوق الهندي التاملي وحدة الطبع اليمني المكافح.

فنشأ مجتمع الولاء للاستهلاك واللا انتماء.

كان الانجليز قد بداوا يتململون ويبحثون عن بدائل سياسية لكن الحركات الوطنية وموجة التحرر التي اجتاحت المنطقة لم تمهلها كثيراً.

ورث الحزب الاشتراكي مجتمعاً يعيش الفارق الطبقي بحدة وأجرى على هذا المجتمع تجاربه ونظرياته..

ووجد الهامشيون مكاناً يمارسون فيه طقوس الكسل وترديد الشعارات لكنهم وظفوا الجميع وبجانبهم المرأة

التي تشكل ٧٠٪ من القوى العاملة الوظيفية في عدن.

سلفية العودة والاستهلاك

مأساة الكثيرين في عدن انهم اعتادوا المشاهرة (الراتب) وتوفر الحاجات الأساسية نمط حياتي يومي يتكرر على مدى عقدين من الزمن.

كان سائق التاكسي يحدثني بمرارةعن تلك الأيام التي كان راتبه فيها ثلاثة الاف وخمسمائة شلن .وكان بإمكانه أن يسكر يومياً حتي الثمالة أما الآن فهو لايسكر إلا مرة في الأسبوع. كان هذا السائق قد تجاوز الستين من العمر ويشكو من عدم قدرة هذه السيارة التي تجاوزت السبعين على مايبدو على تلبية احتياجات البرع (البرع هو الرقص والشرب في قاموس بعض سكان عدن). ومن العجيب انني ما التقيت في التاكسيات التي كنت استقلها الا صنفين من السائقين: إما رجل يحاول أخذك الى أحد أماكن الرقص والتسلية مقابل أن يستمتع على حسابك لأنه يظنك تبحث عن الأماكن السياحية التي في قاموسه السياحي.. أو سائق يحرم عليك حتى الحديث مع موظفة في شركة الهاتف. وهذا التيار من الشباب ينتشر في عدن بسرعة النار. فلم أزر مسجداً الاوجدتهم

يقيمون حلقات الدروس بين الصلاتين ويكشفون حوارهم عن البدعة والفساد الأخلاقي.

تيار سلفي محافظ وكأنه رد فعل طبيعي لسنوات اللا إنتماء.

هذا الإنسان القاطن عدن قد استلهم حقه في المتعة من ثقافته المتنوعة ومن علاقاته الاجتماعية المتحررة من أي قيد.

الجميع هنا يلعنون الغلاء لأن معظمهم يعيش على المشاهرة فحسب، والحياة في عدن مكلفة بالفعل.. ابتداء من أسعار الكهرباء المرتفعة بسبب الاستهلاك الكثير عن طريق المكيفات وانتهاء بالحاجات التي يراها ضرورية كالديش (طبق الاستقبال التلفزيوني) وهي منتشرة بشكل لافت للغاية تجد عمارة من اربعة طوابق يزدحم سطحها بأكثر من خمسة عشر طبق استقبال، والذي لم يجد مكانا على السطح يضع طبق الهوائي في البلكونة. فيبدو منظرا غير مألوف لان البلكونات قد تأثرت بعوامل الطقس فاصبحت واجهات المباني وكأنها قد عمرت الاف السنين.

وتجد الديشات معلقة في الواجهات وكأنها عمال ترميم قادمون من كوكب آخر.

ستجد بيتاً مساحته لا تكفي لاكثر من غرفتين وتقرأ في معالم هذا البيت مدى ضيق ذات اليد التي يعانيها ساكنوه لكن الديش يغطي معظم مساحة السطح الصغير.

غريب هذا الجهاز التلفزيوني الذي يجثم على المباني الكبيرة والصغيرة ويتسلقها كالعناكب العملاقة.

٩٠٪ من ابناء هذه المدينة موظفون يبحثون عن كل وسائل الترفيه ولايعنيهم كثيراً مسألة الايديولوجيات السياسية.

وجدوا أنفسهم في زمن جديد لم يألفوه ويريدون منه التكفل بكل شيء وليفعل بعدها مايريد.

الذين كانوا بعيدين عن عدن في الثلاثين عاما الأخيرة استطاعوا أن يكونوا رأسمال متوسط عادوا به بعد الوحدة ليمارسوا التجارة، والقليلون ممن مكثوا في عدن استطاعوا ان يحتفظوا بشيء للزمن كرأسمال ثابت عاد اليهم بعد الوحدة او عملة ذهبية احتفظوا بها تحت البلاط.

عشوائية اليؤس

الشريحة الأكثر بؤساً في عدن أولئك الذين وفدوا اليها من الشمال أيام الإحتلال وتحديداً في اواخر

ايامه ولم يتمكنوا من العودة واستهلكتهم عدن باحلامهم واشواقهم، وجاء الحزب وظلوا يحصلون على أسباب البقاء مجاناً، تقدم العمر وتغير الزمن وتحولوا الآن الى متسولين، قال لي أحدهم أنه من ذي السفال وانه من قبيلة عظيمة هي قبيلة السحول.

من الممكن جداً أن أصدق أن وادي السحول كان يوماً ما قبيلة كما يدعي هذا العجوز المسكين.

إلا انني لن اعتقد ولو لوهلة ان يكون ذلك الوادي الأخضر المليء بالعطاء والحيوية اصلا لهذا الحرمان اللزج الذي تشكل على هيئة ضحية لاتدري من الجاني عليها وترتدي معطفاً رمادياً اسمه احمد مسعد كان يسكن يوماً ما ذي السفال.

سؤال واحد طرأ على ذهني وأنا اشيع خطوات هذا المسكين: هل كان هذا الإنسان يوماً ما طفلاً؟

هذا الفشار السحولي احمد مسعد والطالب الجامعي الذي يعمل حمالاً والعجوز التي طلبت مني عشرين ريالا ورفضت وشتمتني و.. وكل القابعين في الهامش يسكنون بيوتاً أشبه بالكراتين الرثة، انها تتسلق الجبل بشكل عشوائي بعضها من البلوك وبعضها من الصفيح، وبعضها من الاحجار الصغيرة

والبعض الآخر خليط من كل ذلك.

كان الحمال عبدالسلام يظنني رجلاً حكومياً فبدأ يخبرني بمرارة كيف أن الأمطار تسقط على رؤوسهم، وكيف يمنعه المطر من مذاكرة دروسه، حياة دودية باردة بحدة.

يقتلون أي عمل كان- يتسولون- يسرقون- او هذا كله.. حتى يوفروا الغذاء او حتى يطيلوا البقاء لممارسة أكبر قدر ممكن من البؤس يعيشون على بقايا كل شيء: بقايا العمل وبقايا الطعام وبقايا الشفقة.

يشعرون بالانتصار او يمارسونه، احياناً عندما تأتي الأمطار فتأخذ فضلاتهم التي يضعونها جوار منازلهم (ليس لديهم حمامات) وتنحدر بها الى البحر.. مروراً بانوف ومحلات السادة الذين يقطنون في الذاكرة السوداء.

الهدوء الذي يسبق الطعام

سكان عدن الأصليون لهم ميزة فريدة هي أنهم يحبون الهدوء للغاية فلا تجد الصراخ يعلو كثيرا في المطاعم وفي الأسواق، ولاتجد الاف الدراجات النارية كباقي مدن اليمن، وان مرت دراجة نارية تكون كالبعوض الذي يدور حول وجهك وأنت تحاول النوم

والجميع ينظرون الى هذه الآلة المزعجة وهم منزعجون للغاية.

هذا المزاج الهادئ ينعكس على ذوقهم في إختيار ملابسهم ذات اللون الهادى عادة، وهم قريبون في عشقهم للهدوء الى معظم سكان السواحل في الجزيرة العربية.

فكلما ارتفعت عن البحر كان المزاج أكثر حدة. قارن بين الموسيقى العدنية والبرع الصنعاني.

الناس هنا مؤدبون للغاية ومتسامحون فنادراً ماتجد رجلين يقتتلان، أو يتشاجران، من فضلك، لو سمحت، عفوا، عادي، تفضل، هذه الكلمات يرددها الجميع.

كان ذلك السائق العربيد مؤدباً معي للغاية وخدوما ولطيفاً وخفيف الظل مما جعلني أقع في مأزق البحث عن الفارق بين قلة الأدب والعربدة.

عمال المطاعم هنا في غاية الأناقة والهدوء (المطاعم التي يسمونها باسماء غريبة مثل شنج سينج مثلا) هذه المطاعم توفر لك مضراً من الرشوش والسحاوق والمرق التي لم تتصالح مع معدتي مطلقا. أما تلك التي توفر لك الهدوء والموسيقى والأكلات التي لم افهم من اسمائها صنفاً واحداً فهي تقدم أكلات تظنها لأول

الأمر أفضل من رشوش بني شيبان ومرق آل ديع.. لكنها تصفعك في وجهك بالأرقام التي تجعلك تجوع من جديد (هل يمكن لأحدكم ان يتناول طعاماً لايعرف اسمه ولا طعمه ولا مكوناته ويدفع ١٨٠٠ ريال وجبة عشاء ولا يعود رغم أنفه الى الرشوش والسحاوق؟).

سألت السائق عن الأكل العدني: فقال إحنا بصراحة نأكل كثير.

يا أخي أنا اقصد أنواع الاكل الذي اعتاد عليه أهل عدن.

فبدأ يتكلم عن الرشوش والدجاج، وكلما عرفته بعدها ان الفتة بالتمر هي الأكلة المفضلة لدى أهل هذه المدينة يأتي بعد هذه الأكلة: الصانونة المكونة من البصل والطماط والصلصة والليم الحامض مع السمك والصاص من الخضار المشكل فقط.

الكثير من الأسر تشتري بعض الاطعمة الجاهزة من المطاعم ربما كان ذلك بسبب أن معظم النساء موظفات ولايعدن من العمل إلا بعد الظهر.

المرأة الحديدية

المرأة في عدن لها دورها في الحياة العامة من خلال وظيفتها العامة ووظيفتها الاجتماعية التي منحتها الكثير. انه ميراث قرن ونصف من محاولات اعادة

تشكيل مجتمع مركب كهذا.

ولذلك فالمرأة في عدن تتكرر في كل نكهة في السياسة والفن والطبيخ.

كانت راكبة الى جواري في أحد الباصات الصغيرة بعد أن أرهقتني سيارات الأجرة وأكلت معظم جيبي.

هذه امرأة يبدو عليها اليأس والإحباط، لم تجد غير زوجها الذي افترضت انه الآن ينتظرها في البيت (ينتظر حقه الخدامة) هكذا قالت، وأغرقتنا معها في تفاصيل حياتها اليومية من الراتب الى الكسل والعودة بالزمن الى ماقبل عشر سنوات كانت تردد: «قلت الحب أبقى وموش مهم الفلوس والآن دريت إنه لاحب ولا شي بسبب ما كان فيه من يفهمنا ويعلمناالحياة وأصول الاختيار.

ثمة رجل عجوز كا يجلس في المقعد المواجه لنا انه مجنون ولا شك إذ كيف يفاوض رجل في سنه إمرأة في سن إبنته وعلى رؤوس الأشهاد ويحرضها على الانفصال عن ذلك الزوج الأناني الكسول ومن ثم الاقتران به، مجنون وقليل حياء وظريف هذا الرجل، لايهم كانت تضحك وتقسم أنها مستعدة لتنفيذ ما يريده وفوراً .

المرأة هنا تتكلم في كل شيئ ولا تهتم كثيراً بردود الأفعال ولديها جرأة زائدة إلى حد ما.

إذ أن الفارق بين الرجل والمرأة ضئيل الى حد ما مقارنة بما ألفت ورأيت، اذ أن الرجل هنا أقل ميلاً إلى العنف ولايميل كثيراً الى العمل الذي يعتمد على المجهود العضلي، بعكس إخوانه في بقية محافظات البلاد، وتجده هادئاً ونظيفاً الى حد ما.

والمرأة من جهتها وبجرأتها وطبيعتها اضافت الى تقليص الفارق بين الرجل والمرأة، كعلاقات متكررة باختصار الرجل أقل خشونة والمرأة أقل نعومة، وهذاهو سر اختفاء الفارق الحاد بين الجنسين المرأة اكثر مما تتصور بكثير، فهي قادرة على انتزاع إعجابك بأسلوبها في العمل لأنها جادة ودقيقة في اداء عملها، ومحتشمة الى حد كبير، فالجميع هنا يرتدين البالطوالاسود وغطاء الرأس الأسود أيضاً فيما عدا مانسبته أقل من ١٪ ترتدي فستاناً جميلاً ويغطي جميع الجسم انه زي موحد من موظفة الاستعلامات في الفندق الى الدكتورة اوراس سلطان كنت قد وقفت امام ملصقات الدعاية الانتخابية للدكتورة اوراس والاستاذة الوف باخبيرفي قلب عدن، حيث تمكنتا من

الفوز بجدارة، وبدأت فيما بعد أسمع بعض مداخلات الدكتورة اوراس في مجلس النواب، وكذلك بدأت أعتقد ان الدكتورة أوراس والأستاذة الوف قدمتا نموذجاً جيداً للكيان وللعمل النسائي في اليمن.

السباق في السهول المفتوحة

ولأن هذه المدينة قد ادمنت الانفتاح ورتبت اوضاعها على ضوئه، فكان لابد من التوجه نحو إعادتها الى وضعها الأول اقتصادياً كميناء حر، خطط وبرامج مرحلية متكاملة لصناعة أطراف المدينة لتتمكن من ممارسة الاحتضان والاغراء

فقدتحولت المنطقة الخاصة باستقبال السفن - الميناء- الى ورشة عمل نشطة للغاية، الكثيرون يتحدثون عن ثمار إستكمال التجهيزات التي تجعل عدن قادرة على القيام بدورها كمدينة حرة.

ايد عاملة كثيرة ستجدلها مكاناً وعملة صعبة ونشاطاًاقتصادياً وتعزيز موقع سياسي لليمن، ثمة شركات اوروبية تقوم بأعمال الردم والشفط وبناء رصيف الحاويات عن طريق شركات عالمية كبيرة بتمويل من البنك الدولي، وشركات استثمار وبتمويل من الدولة.

استعداد نفسي من قاطني هذه المدينة للتعامل معها كميناء حر، وقناعات اسالت لعاب الكثيرين من ابناء البلاد اليمنية عن السوق الحرة، عن الاستثمار والشركات العملاقة، وعليه تكون المرافق الضرورية للشحن والتخزين والتفريغ والإقامة السياحية بحاجة الى أراض شاسعة

وقفزت الى الأذهان صور المعاملات بالدولار والاسعار الخيالية، فبدأ السباق المحموم على الارض شراء، نهب، وتحايل، وبدأت تطفو على السطح مشاكل الأراضي وبيعها وإعادتها الى ملاكها قبل التأميم، وتورط البعض في الاغتصاب ووقع البعض في فخ الأصول المزيفة

مشاكل أرض ومباني يرفض ساكنوها إعادتها الى ملاكها الاصليين الذين كانوا قد استسلموا للوضع الذي ارغمهم على التخلي عن أصولهم الثابته.

انها حرب صيف ٩٤ م التي فرضت واقعاً جديداً لم تتمكن اجهزة الأمن من احتوائه (هذا فيما يخص الخلافات غير السياسية) كانت التفجيرات التي شهدتها عدن في الآونة الأخيرة قد ايقضت أعصاب وعقول الأجهزة الأمنية وجعلتها في حالة استنفار،

فأصبح الجميع يتوجس من الجميع، رجال الامن غير العاديين حاضرون في عدن وبقوة، وقد نجحوا الى حد ما في القبض عل عصابات وتوجيه ضربات وقائية الى أخرى. واعتقالات يعرف رجال الامن ومدبروا الانفجارات مبرراتها، رغم بعض الاخطاء التي تقع عادة في مثل هذه القضية الحساسة.

لأن الرئيس في عدن ..

لم اجد ركام القمامة إلا فيما ندر عدن نظيفة الى حد ما، بل الى حد كبير، وذلك من بركات الشتاء الرئاسي، وطبيعة عدن الجغرافية تمكنها من التخلص من الكثير من الفضلات والنفايات فهي تأخذ وضعاً إنسيابياً يساعد كثيراعلى انزلاق الأشياء غير المرغوب فيها باتجاه البحر، كل شيئ لم يعد له حاجة يتدحرج وربما يستقر في قاع البحر أبرز مثال على ذلك العلب الفارغة والمشاغبون.

واعنف مايكون هذا الانزلاق اثناء الامطار الطبيعية والصناعية، ومن النظافة يتمكن الامن من ممارسة عمله على اكمل وجه. فهو يزاحمك في كل مكان، الا دورات المياه وأن تحاول التقاط الصور فهذا شيئ غريب سيتجه إليك شابان

وسيمان يسألان ماذا تصور ولمن؟ ومن انت ستقول انك
تحاول التقاط صورة للشاطئ الشرقي حيث الطيور
التي لم ترها من قبل، وتخبرهما انك تعمل محرراً في
مجلة....، تخبرهما كل ذلك من باب الذوق وتبادل
المعلومات وهما بالطبع سيكرران من اين انت؟ فتتوجس
في نفسك خيفة وتتشجع وتقول من حبيش، سيقولان
لك من اي قرية؟ عندها ستتسأل عن سبب هذه الاسئلة
يبتسمان ويتركانك تحاول إخفاء الكاميرا في ثنايا
الجريدة

السيارة التي مرت قبل قليل كانت توزع المياه الصحية
الباردة على جميع افراد رجال المرور وعلى بعض المارة،
وانا واحد من المارة .... السيارة التي مرت قبل قليل
وكانت توزع المياه الصحية ...إلخ عادت وكانت سيارة
عسكرية توزع النظرات الباردة.

الضابط الذي يركب جوارالسائق في السيارة التي
..إلخ ناداني : تعال وفوراً تذكرت الشابين الوسيمين
وأسئلتهما الدميمة واقتربت من السيارة وتكررت نفس
الاسئلة وتكررت نفس الإجابة الاخيرة قال لي انه
سيصادر الكاميرا وجهاز التسجيل والبطاقة، فاخبرته
ان الجميع يلتقطون الصور بما فيهم الفرنسيون لم

اقل الأجانب، لأنني لم ار في المتحف الذي كنت عائداً
منه غير فرنسيين يحملون كاميرا تصوير وكان أحد
الرجال الأمنيين قد قرأ اسم رئيس التحرير على
البطاقة وبإشارة منه للضابط تراجع عن المصادرة
وتراجعت عن التصوير بقية هذا اليوم الكاكي.

عندما تحاول قياس المدى في عدن في السياسة
والفن والمرأة يجب أن تقول دائماً : الى حد ما الجميع
هنا متوجسون وتحديداً الرجال، فإذا بدأت الحديث عن
عصابات التفجير بادرك أقربهم اليك لاتدخل نحنا في
السياسة».

الناس هنا هادئون وطيبون ولا يرفضون شيئاً، وكل
شيئ في عدن ممكن هذه المدينة ذكرتني بما قرأت
لاحسان عبد القدوس، وروايات عبير عن الحب والزواج
والمتاعب، وعن الهدوء والكلمات عدن فيها غرام كثير،
وزحام وهيصة، على رأي الاخوة المصريين، لعدن
أسبابها الخاصة في ان تحفظ بعض الأشياء سراً لا
تبوح به لأحد، وحدهم المثقفون القادرون دائماً على
مغافلة عدن وسرقة بعض خباياها ولديهم الشجاعة
الكافية ليقوموا بذلك.

عندما التقيت الفنان سهل لم يكن سهلاً مطلقاً.

سهل صالح شاب في الثلاثينات اسمر نحيف فنان عضو فرقة المسرحيين المتحدين اسست هذه الفرقة عام ٩٢م قدمت بعض الأعمال كان آخرها: «هب له من الديش» وهي مسرحية تهاجم الوعي الاستهلاكي ومفهوم الترفيه الاحادي عن طريق محاولة تفكيك الحدث واعادة صياغة البنية كمحاولة اخيرة الادماج اللغة في التراجع انا لم أفهم شيئا، وإذا فهم أحدكم فليحمد الله. كان سهل يبحث عن رجال اعمال يدعمون الفرقة وأعمالها مقابل عمل دعائي لشركاتهم تقوم به الفرقة، اخبرني سهل أنهم يدفعون رواتبهم ثمن مطبوعات إعلانات ودعوات وخلافه. الثقافة في عدن مكثفة الى حد ما (لاحظ تكرار الجملة الاخيرة) ففيها مكتبات عامة ومراكز ثقافية كثيرة.... الذي لفت انتباهي هو مركز عبد العزيز الثقافي، كانت مأساة فتاه تذهب يومياً إلى مكتب وزارة الثقافة حتى لا يلغوا راتبها بعد أن قام أحد الضباط باحتلال مركز عبدالعزيز الثقافي، الذي تعمل فيه هذه الفتاة، دخل هذا الرجل اولا على أساس أنه سيستلف كتابا وانتظر حتى غادرت الفتاة المركز وقام باقتحامه واحتلاله مع اسرته (إنها قضية تتكرر باستمرار). أما اتحاد الادباء

والكتاب فلم أجد فيه غير حطام النوافذ والابواب حاولت البحث عن مقرهم الجديد ففشلت .

عندما قررت عدن انهاء زيارتي لها كانت قد ملأت راسي بالهدايا والتاريخ والنكات والدموع والمخالفات التي كانت زائدة عن حاجتها.

الذي تبقى من عدن

أعطيت صديقي معوزه الذي استأجرته منه وركبت السيارة وأناأشعر بالنعاس وأحاول الالتفات نحو عدن،

- خلفت ورائي كل شيئ واحتفظت برغبتي في العودة.
- انا اصلاً من ذي سفال من قبيلة سحول بن ناجي.
- ماأقدر لأن المطر ينزل من السقف.
- جاء على أساس يستلف كتاب وبعدين اقتحم المركز.
- لوسمحت ياأخي لاتدخل نحنا في السياسه.
- (من اي مكان في حبيش).
- القصر- بيوت الصفيح - ميناء مدينة حرة.

الى اللقاء يا عدن.

حجة

ذاكرة الدم

وحدهم الأطفال يدركون سر الأماكن البعيدة..

وهكذا كانت حجة عجوزاً تطبخ المرق الداكن في بيت قديم وشاهق.. يكبر الأطفال وتنمو حجة إلى أغلال وعمائم وزامل.. إلى ثورة محاصرة.. وصورة مبهرة لمحارب عنيد اسمه مجاهد..

حجة: جذور إمامة وحكاية ثورة.. جرت مياه كثيرة في قنوات التحولات وعندما بحثنا عن حجة لم نجد فيها شيئاً يتفوق على ذاكرة الدم..

في الطريق

قال عامل المحطة بقي أمامكم سبعون كيلو متراً حتى تصلوا حجة.. بعد قليل سنطل على جديد.. ومع تلافيف الطريق التي تمر بين مايشبه اطلال إنفجار نووي بدأت نكهة حجة تنبعث من بين الصخور التي تفتت بفعل ضربة قبضة عملاقة.. ماأكثر الصخور هنا..

وعندما تقترب من شاهق ستفرح باشياء عادية للغاية منها الشمس الراحلة أمام حشود القمم الجبلية..

ومع رذاذ المطر أدركنا إننا افلتنا من قبضة الجفاف في صنعاء.. رائحة التراب الذى انعشته قطرات المطر يأخذك إلى ذكرى عذراء مثقلة بطفولة العشب.

ومع أول منعطف في هضبة الأشمور تبدأ قسوة حجة وحكايا الثورة الفاشلة ترسف فى الأغلال، في الطريق إلى سجون حجة..

علماء وشيوخ، قبائل ومحاربون يتراكمون على بعضهم في صناديق السيارات.. مثخنين بآمال خابت وفجيعة ثكالى وضياع أطفال ذنبهم الوحيد إنهم اسر رجال حاولوا انتشال اليمن من بؤسها.. لقد فعلوا ما بوسعهم. أعدوا الدستور- اغتالوا الإمام يحيى.. شكلوا الحكومة- ارسلوا الوفود- ونسوا امراً واحداً فقط هو التخلص من احمد ياجناه قبل أبيه الإمام المريض...

بين عقبتين

معظم الائمة انطلقوا من كهوف حجة.. وفر ولي العهد من تعز إلى حجة... واعد جيشه في حجة.. وانطلق من حجة ليحاصر صنعاء ويسقط ثورة ٤٨م ويقذف بقادتها إلى جحيم حجة.. وعندما فر البدر صبيحة ثورة سبتمبر توجه إلى حجة ليسقط منها الثورة... وهذا هو التفسير الوحيد لما يعرف بدورة التاريخ....

وفي الطريق إلى حجة تتزلزل الصخور فتتوقف السيارات قلقة حتى يتمكن المتطوعون من تنظيف

الطريق...

انظر إلى الخلف لترى طبيعة مصمتة ولا أثر لطريق مررت من خلاله وبقليل من الإمعان ستدرك حجم مغامرتك الشاهقة..

عقبة واحدة وازمنة كثيرة لاناس في طريقهم إلى بلدة حاذقة. ستقدم لهم ائمة ومشانق وقصائد وضبابا واشياء تصلح ضمن استطلاع صحفي...

كان رجال ٤٨ يتمنون ان تنقلب السيارة فى هذه العقبة، وبعد أربعة عشر عاما كانت ثورة اخرى في طريقها إلى الثأر.

من هنا تدفق الرجال خلف (مجاهد أبو شوارب) الذي لم يأبه لنصائح الخذلان بالعودة إلى صنعاء...

وأمام قوة شخصيته الفولاذية انسحبت الإمامة من آخر معاقلها وتمكن من فك الحصار عن مدينة حجة التي صمدت لسنوات أمام الملكيين..

إنتهت العقبة، وهانحن الآن في (سوق شرس): (كل ما هنا شرس بالفعل)... بقايا موز وقصاصات حياة شرسة.

بدا الظلام يلقي بأسئلته الكثيرة ونحن بين عقبتين.. تجاوزنا الجسر الصغير وبدات عقبة حجة...

ثمة سيل صغير ووحيد يتدحرج إلى اليمين ويافطة كتب عليها (شلال عين علي)....

كل اليمنيين يحبون علياً ولذلك ستجد في كل بلدة وقرية يمنية، ضربة علي وعين علي وأحفاد علي ودعسة علي.. والأخيرة موجودة في منطقتي.. كنا نتخيل ونحن صغار أن علياً يناطح السحاب.. عملاق حقيقي إذ أن دعسته كرم الله وجهه.. تتسع لثلاثة أطفال يتمرغون في الوحل الطاهر...

مساء كثير

بدأت الكآبة تخنق متعة الإكتشاف ربما بسبب القات.. وقد يكون التاريخ العدواني وراء ذلك كله.. أو لأن حجة لاتمنحك الحق في رؤيتها من بعيد.. إنها تتمترس خلف التضاريس القاسية وفي ثنايا الضباب الذي لا تبارحه، وخلف فضائع التاريخ.. لذلك وكلما اقتربت منها تكاثفت الرهبة في صدرك كمسافر يقترب شيئاً فشيئاً من وحشة كامنة بليل..

كانت مصابيح الشارع شاحبة، والناس يتحركون بلا هدف، الجولة الأولى في شارع وحيد كئيب.. لاجديد، بلدة كابية كسلى فالمساء لايزال كثيرا وزمن مابعد القات يقذف بالناس إلى الأرصفة والشاي بالحليب

على ايقاع الهم.

الكوت والزنة والجنبية، وبعضهم يلبس البنطلون.. لقد تخلى أبناء حجة عن لباسهم التقليدي كغيرهم من أبناء بقية المدن اليمنية في المحافظات الشمالية..

مجموعة تلال صغيرة تتبعثر عليها الأضواء الجنائزية.. لاشيء يبرق.. لا شيء حيوي.. حتى المستشفى السعودي، ورغم أضوائه الساطعة فقد كان يشبه مخزنا زلزله القات.

إلى الآن لم يقل معلومة واحدة عن حجة.. هذا الرجل يكتب خواطره كما يفعل دائماً.. أنت محق لكنني لا أملك خياراً حيال كآبة المدن المسائية.. وهكذا أتكرر لأن اليمن يتقسم عادات ولهجات... لكنه واحدٌ مكتئب.. التفاصيل فقط هي التي تميز حجة عن إب، عن تعز.. ففي إب وما إن يأتي المساء حتى يصاب زائرها برهاب الأماكن الضيقة ويفر منها مهما كان الثمن.. وفي تعز يأتي المساء فيغرق ضيوفها فيما يشبه حقول الصمغ..

وفي حجة يأتي المساء فيتمنى الضيف لو كان نعامة ليدفن رأسه في أي شيء.

ليتوقف كل هذا، المصابيح عن الاحتضار والناس عن

القلق والبيوت عن التمترس بين التلال.

ثمة فنادق قليلة قبيحة، نصف الفندق أحجار والنصف الآخر قرميد وزنك، والمدخل ضيق وأمامه يجلس رجل ممزق يحك صدره بقوة.

ندور حول أنفسنا ما بين المستشفى السعودي وقصر سعدان وفوق رؤوسنا كانت قلعة القاهرة جاثمة على المساء تراقب القادمين... المساء حواجز بين الاشياء العزيزة.

والاطفال يحاولون إرشادنا إلى فندق (سمعنا عنه خيراً) وعندما قال موظف إستقبال الفندق: «اربعة الاف ريال..» كان ساعتها يقدم دليلاً جديداً على التأثيرات السلبية لقسوة الطبيعة.. تقطع أكثر من مائة وخمسة وعشرين كيلو متراً في ساعتين ونصف لتنتهي إلى الغضب العاجز أمام تلك القسوة ويقول لك أحدهم: «اربعة آلاف»..

حُجة بن أسلم

تقع حجة إلى الشمال الغربي من صنعاء، وتبعد عنها (١٢٥) كيلو متراً، ويقال أن حجة سميت هكذا نسبة إلى «حجة بن أسلم بن عليان بن زيد بن جشم بن حاشد».. وتشمل محافظة حجة حجور الشام وحجور

اليمن وحجور البشرى، وبلاد الشرفين وقضاء حجة بكحلان عفار- مسقط رأس ابن الامير الصنعاني- وضفير مبين وفيه ضريح الامام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى الذي توفي عام ٨٤٠هـ.. وما أكثر الذين ادعوا الإمامة انطلاقاً من حجة.. وكأنها لاتنبت إلا الأئمة.

ظهر فيها إبراهيم المحطوري عام ١١١١هـ في منطقة المحابشة والشرفين، نصب نفسه إماماً مستعرضاً قدراته في السحر والشعوذة.. وبدل أن يعين الولاة قام بنشر المجاذيب الذين يطعنون عيونهم، وكون منهم جيشاً زحف به حتى وصل عمران فخذله المجاذيب ربما لأنهم لم يجدوا ما يملأ عيونهم.

بعد ذلك ظهر التكروري القادم من إفريقيا يدعو لنفسه إماماً.. وفي العام ١١٦٤هـ نبت إمام آخر هو أحمد الحسني، الذي انطلق من المحابشة مستخدماً السحر والشعوذة أيضاً.

وهكذا وما إن يرحل إمام بذكراه السيئة حتى يولد آخر ليستمد سلطته من علاقته بأشياء كثيرة من ضمنها الجن.

ذاكرة الدم

لم يكن الصباح جميلاً البتة.. لأن مدينة حجة

لاتزال مشروع مدينة جميلة، رغم أنف اللباقة الصحفية.. لأن تركة الإمامة انهكت أي احتمال بميلاد حياة أقل قبحاً.. قرون من استنزاف روح المكان والإنسان.. مضوا وخلفوا وراءهم سجوناً وذكريات سيئة وبذور تعصب مذهبي لايزال يعد للخراب الأخير..

ومن التلة الصغيرة التي يتربع عليها الفندق، انزلقنا بحثاً عن امكانية المدينة في البقاء.. تجاوزنا حي السوق الذي يقع فيه ما كان يسمى «سجن نافع».

في الطريق الى نعمان..

ونعمان بفتح النون.. ولكي تصل الى قمة نعمان عليك المرور من جوار سجن المنصورة..

وعبر طريق لايكفي لأكثر من سيارة، وجدنا انفسنا على قمة نعمان نقف أمام بيت النائب الذي تولى الإشراف على ذبح زعماء ثور ٤٨م.

ينزل في الصباح على موعد مع برقية تأتي من الإمام أحمد بإعدام فلان أو أكثر.. ويعود مع المساء.

كانت فكرة مرعبة أن تدخل بيت النائب.. ففي ذلك مجازفة.. تحول البيت الآن إلى مركز شرطة.. نوافذه مخيفة والنظر إليه يترك انطباعاً سيئاً.. وكأنك تنظر إلى قلعة الكونت دراكيولا..

لاشيء في نعمان.. مكان يبعث على الانقباض ولا يصلح حتى لالتقاط صور فوتوغرافية للمدينة....

ومن نعمان إلى السوق الذي يقوم على اطلال سجن نافع.. عشرات الذبائح معلقة بطريقة ملفتة.. وكأنها تعيد شحن الذاكرة بمذابح الدستوريين..

هنا كان زيد الموشكي، وأحمد الشامي، والنعمان، والشماحي، والحضراني والحورش، والسلال، والخادم الوجيه، والوزير، و..

هنا ظلوا يقاومون الانكسار والابتزاز وسحل الكرامة.. ورغم ضجيج السوق إلا أن حشرجاتهم لاتزال تنبعث من ثنايا المكان.

هل ينسى الناس جراحهم بهذه السرعة ليغادروا السوق حاملين اللحم من سجن نافع؟!!

شارع ضيق يتجاوز السوق إلى ممر بين حلة اليهود.. الحي المتلاصق المدهلز الذي غادره اليهود عام ٤٨م..

وبين «قصر سعدان».. أتدرون؟ أولئك القوم سيئون للغاية.. فلم يكونوا ملوكاً كغيرهم.. فشلوا حتى في بناء قصر واحد.. سعدان ليس قصراً ولا علاقة له بالقصور.. هو مبنى شنيع يفتقر إلى أقل لمسة جمالية..

تجد في حضرموت تاريخ سلطنات وأطلالاً ملكية فخمة تدل على ذائقة رفيعة.. أما آل حميد الدين فكانوا أشبه برجال عصابات .. لديهم سجون وأغلال تشبه سلاسل البواخر العملاقة.. ولم يخلفوا إلا القبح.. فأينما ذهبت في حجة وجدت رائحتهم..

الحي السياسي

في طريقك إلى القاهرة ثمة مبنى يحاول الاختباء خلف شجيرات مبعثرة.. إنه إلى يمينك.. لا تنظر إليه بإمعان لأنه مبنى الأمن السياسي بحجة.. وفيما مضى كان أول مدرسة بنيت في المدينة..

نصف كيلو متر وانعطف يساراً لتمر بالحي السياسي، حيث النظافة النسبية والهدوء والبيوت التي لاتكلفك ذكاء حتى تدرك أنها بيوت رجال الدولة في حجة..

أعتقد أن مسئولي المحافظات، ومدراء عمومها أبناء قرية واحدة.. لذلك تجد بيوتهم في إب، وفي تعز، وعدن، وحجة تتشابه كثيراً.. وغالبا ماتتدلى الزهور من حواف أسوار بيوتهم بنفس الطريقة.. بالإضافة إلى تجمعهم في منطقة واحدة.. ذات طبيعة إنسيابية.

أجمل ما في الحي السياسي هو مدرسة الخادم الوجيه.

وهكذا يتحول العظماء الى مدارس وشوارع وكلمات

عرجاء تحاول مكافأتهم بطريقة فجّة..

لم يكن الخادم الوجيه يقدم ماله وروحه ليتحول إلى مبنى أو شارع الخادم.. حكاية من نوع خرافي.. فنادراً مايقبل التاجر لعب دور الثائر.. التاجر صورة أخرى فيها شيء من الأنانية والخوف والتقوقع في عالم خاص.. غير أن الخادم الوجيه كان أكثر من تاجر، وجد نفسه شريكاً في ثورة دستورية.. لقد كان قادة ثورة ٤٨م ملامح رائعة ومدهشة لمعنى الثورة النبيلة.. إلا أن الخادم الوجيه كان أكثرهم نبلاً.. وأقلهم ذكراً..

ولا أدري لماذا يجتاحني الشجن كلما مررت بذكرى الخادم الوجيه الثائر الصامت الذي لم يكن لديه ثأر شخصي.. ولا تطلعات سلطوية.

لقد بذل كل شيء لأجل الآخرين.. واختار الثورة دفعة واحدة من أول آهة أرملة وحتى آخر رغبة لديه في البقاء...

ومن الحي السياسي إلى الظهرين، حيث تختبيء حجة القديمة بين صغر مساحتها وافتقار بيوتها إلى التميز الذي تجيده المدن القديمة..

لا شيء في الظهرين يبعث على الدهشة، ربما بسبب طغيان (القاهرة) عن لهفة القادم من بعيد.. حكايا

القاهرة تجعلك تؤجل دهشتك حتى زمن ومكان آخرين...

قلعة القاهرة حصن حربي متميز.. فقد بناها الأتراك للتمترس واستخدمها الائمة بعد ذلك لزج مناهضيهم في دهاليزها...

تقع القاهرة عى تلة صغيرة قرب الظهرين، والوصول إليها لايتطلب الكثير، وكلما اقتربت من البوابة الرئيسية، كلما تغلبت على أسطورة القاهرة.. ومع أول خطوة خلف البوابة يصبح المكان أقل عدوانية، إلى يمينك غرفة صغيرة شبه مظلمة يطلقون عليها (كوش القمل) غرفة استقبال السجناء في الأيام الأولى.. قال أحد الكهول الذين يمضون بقية حياتهم في القاهرة: «هذه أبجد الحبس..»، ثمة قيود رهيبة معلقة على الجدار المواجه للبوابة الرئيسية..

طَلَل على أطلال

يأتي الناس إلى القاهرة وفي أذهانهم دماء الثائرين وحكايا شموخهم أمام القسوة والهمجية..

أما أنا فشعرت بحميمية غريبة تجاه المكان.. طرق اليفة بين حشائش قروية.. مسجد صغير وبرك للإحتفاظ بمياه الأمطار.. وهناك مخازن الذخيرة

والمال.. وتحت قدمك تماما مدافن الغلال..

قلعة مجهزة لاحتمال حصار طويل المدى.. وفي قلبها يشمخ دار مكون من أربعة طوابق تصعد سلالمه ببطء كمن يحاول النفاذ من بين عشرات العسكر..

في هذه الغرفة امضى عبداللطيف راجح أيامه الأخيرة ساخراً من احتمالات الموت..

كان (يُخَزِّن) في هذه الزاوية ويطل من النافذة وكأنه في بيته في بعدان..

الذين عرفوا عبداللطيف راجح انساناً وشيخا ومعتقلاً، ظلوا يضربون المثل بقوة طبعه وعنفوان روحه..

وربما يكون الشهيد عبداللطيف الثائر الوحيد الذي لم يحاول إستعطاف الإمام.. واستشهد كعادته فارساً يتدفق نبلاً وجرأة.. في شهر رجب ١٣٧٩هـ..

وكلما حاولت الفرار من التاريخ أرغمتك حجة على البقاء مكبلاً بالأسماء والأحداث.. فحجة مجموعة معتقلات وسلسلة تاريخية واحدة، على هيئة زخات تنتهي دائما إلى ساحة إعدام.. لقد كان قادة ثورة ٤٨ موزعين بين سجن نافع والمنصورة والقاهرة. وإنتهى معظمهم إلى يد الجلاد...

وقبل مغادرة القاهرة سألنا المرشد السياحي المتهالك عن طبيعة عمله في مكان كهذا.. واتضح أن الرقيب العواضي كان أحد أفراد الفوج الأول بقيادة ولي العهد محمد (البدر) وانه حارب كثيراً ولا يدري لماذا؟

وهكذا وخلال نصف قرن من العسكرة ينتهي تاريخ الرقيب العواضي إلى ذاكرة معرقة لطلل يقف على أطلال..

ضريبة النجدة!

وعلى سطح سجن القاهرة ستجد ملاذاً من سجنك الخاص الذي يحاصرك بمجموعة قناعات سطحية عن هذه البلاد.. في سطح السجن رحابة وبداية صداقة مع حجة، والسبب بسيط للغاية، وهو أن الخرائط ليست حكراً على العسكر والساسة.. كان ديجول يقول دائما: «قبل أن يتخذ القائد قراره عليه أولاً فرد الخريطة والامعان في تفاصيلها..».

ومن هذا المكان تسترخي تضاريس حجة أمام قناعاتك السابقة وتجبرك على إعادة قراءة المكان والتاريخ والإنسان..

لم يتسع العمران كثيراً.. لضيق مساحة المدنية وربما لضيق ذات اليد. ولضيق أفق السياسية ظلت حجة الى

الآن تدفع ثمن دماء رجال الثورة..

لاتحدق جيداً لتلاحظ من موقعك على قمة السجن أن أكثر ما يستولي على عينيك من المدينة هما المستشفى السعودي بحجة، الذي بنته المملكة العربية السعودية، ويعمل بإدارة وتمويل سعودي.. ومبنى السجن المركزي العملاق.. الذي بنته الحكومة اليمنية مؤخراً.. وكأنه لم يكن ينقص حجة سوى السجن.. ويتندر أبناء المحافظة بعبارة من خطبة مسئول كبير أثناء افتتاح السجن.. (هنيئاً لكم يا أبناء حجة بهذا المنجز العظيم)....

ليتني كنت عبداللطيف

تغادر القاهرة مقهوراً ومثقلا بالشجن، زاهداً في حذلقة الصحافة عبر جمل بلهاء مللتها وملَّتك...

يصيبك انفصام شخصي فما عدت تدري من أنت.. الإنسان التعب، الذي فتح عينيه على الحياة فرآها مقطباً وبندقية وكدمة في الفوج الأول وانتهى إلى رقيب في الستينات من عمره ينتظر فُتات (المعاش) وصدقات الزائرين؟!!

أم أنك الإمام؟ هل أنت عبداللطيف راجح الفارس الذي هزم الإمامة بشجاعته وسخريته من الجلاد؟ أم

إنك الصحفي المحشو ادعاء الغارق في رعبه بين موعد المؤجر وموعد مدير التحرير..! ليتك كنت عبداللطيف.. تمضغ القات متكئاً على جبروت شخصيتك.. ساخراً من إمامٍ متهافت ابلغك احد المقربين منه.. انك في الصباح ستقتل.. فابتسمت ومنحته غصن قاتٍ ندي.. ليتني كنت عبداللطيف..

ثمة مسجد صغير يقع إلى يسار العائدين من القاهرة.. بناه الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر حديثاً.. يقع الى جوار قبور اربعة شهداء هم: حسين بن ناصر الأحمر، وابنه حميد بن حسين الاحمر واحمد ناصر القردعي، بالإضافة إلى قبر شهيد اشموري مات غرقاً.. لا احد يجهل قصة آل الاحمر نفوذهم ونضالهم واستشهادهم..

ومن لا يعرف حسين بن ناصر مبخوت الأحمر، الذي كان مضرب المثل في اليمن، في ثرائه وسطوته.. كانوا يقولون ولا ابن ناصر مبخوت.

وانتهى ابن ناصر مبخوت مع ولده الفرس الجامح حميد إلى قبضة الإمام الذي نكل بهم وباقاربهم.. هدم بيوتهم واقتلع الغرس من مزارعهم.. ويقال أن الإمام أمر بإقتلاع ثمانين ألف غرسة بن من مزارع بن ناصر

مبخوت.

كان حميد الاحمر يردد: «الى متى ستظلون هكذا تزملون مع الائمة..؟!».

وبدأت حركة آل الأحمر في العام ١٩٥٩م غير أن رسالة وجدت طريقها إلى الإمام أحمد.. كانت الرسالة موقعة من حميد الأحمر إلى بعض المشائخ يحرضهم فيها على مواجهة الإمامة.

هذه الرسالة غيرت كل شيء، وقبل أيام من اعدامه زاره السياف إلى زنزانته.. وعندما بدأ يمر بيده على عنق حميد.. ادرك انه سيقتل قريباً.. اخرج من جيبه آخر خمسة ريالات ووضعها في يد السياف قائلاً: «إقطع رأسي بضربة واحدة».

وعندما وقف في الميدان أمام السياف طلب سيجارة التهمها بسرعة وصلى ركعتين ونظر الى البعيد قائلاً: «الله.. ما أجمل جبال حجة..!

ويقال أن القسوة بلغت بهم حد الذهاب الى زنزانة حسين بن ناصر الأحمر والسيف يقطر من دم حميد..

وهكذا يسرق التاريخ حاضر المدينة الصغيرة ويختزل المحافظة في مجموعة سجون وشواهد دامية..

الناس هنا عاديون للغاية بملابسهم وعاداتهم

وفضاءات التمثيل الاجتماعي..

غير ان محاولات التغيير تقاوم ثقل الميراث المتخم بالعصبية والتمييز على اساس المهنة..

وكبقية محافظات الشمال كان المجتمع ينقسم الى سادة وقبائل وسوقة..

تختلف المصطلحات من أشراف (هاشميين) إلى سادة، ومن القرار (اصحاب المهن) إلى سوقة.

هنالك شباب حصلوا على مستوى من التعليم والتثقيف الشخصي اهلهم لإقامة علاقات زواج من أعلى إلى أسفل ودفعوا الثمن غالياً..

أما (السوقة) الذين التصقوا بالسوق والربح وتقديس قيمة الاعتماد على الذات فقد حصلوا على أرباح مكنتهم من الشراكة مع الفئات الاخرى (ولو في حدها الأدنى) يبلغ سكان محافظة حجة (١,٣٠٠,٠٠٠) مليون وثلاثمائة الف نسمة معظمهم من القبائل التي تحتل (حاشد) المركز الاول في حجة كثافة وسطوة، ولاسيما العُصيمات.

أما بني هاشم فيتركزون في الشرفين وفي مناطق اخرى يمتلكون فيها حصة كبيرة من الارض والماء والكتب.

وفي مدينة حجة (عاصمة المحافظة) تتقاسم النفوذ والسطوة ثلاث أسُر هي: آل الهاتف وآل نصار وآل حُميد...

جماعات ضغط ثلاث تؤثر بفاعلية في حركة المدينة.. سلباً وايجاباً..

لكل مكان أشياؤه المخبأة التي لايقدمها إلا للأعزاء.. وربما تمكنا من اغواء حجة فكافأتنا بساعات من الرذاذ والرحابة في (شلال مهرب) تهرب إلى مهرب من السجون والدم والمحاولات البلهاء لاكتشاف دهشة مزيفة..

البحث عن مهرب

أقل من ساعة تنحدر في السيارة من عقبة حجة بإتجاه شرس ويتدفق اللبن اللذيذ من البيوت الطيبة على جانبي الطريق.. ويتدفق رفيقا الرحلة مجيب سيلان، وأحمد الجحشري ذكاتاً وألفة وثماراً نصف ناضجة.

وكلما اقتربت من الشلال تكاثف العشب.. وعى جانب الوادي يتكرر الناس الطيبون، البؤساء الذي يعيشون على الحافة.. يكرمونك بثمرة طازجة ونظرة ترحيب ونموذج متكرر لحياة الحافة بين المدينة والقرية، بين

السيل والحيد..

صلاة الجمعة في مسجد حورة اكتشاف لفضاء جديد من العلاقات والتحولات وقبل الدخول من أي البوابات شئت، قف قليلاً في ميدان حورة..

هنا صُلب قادة ثورة ٤٨م.. في هذا الميدان لايزال الدم يفور في قلب الظهيرة...

«يتشبث الدم بالتراب..

وتنشب الاعضاء صورتها على صدر الحفر».

«احمد عبدالمعطي حجازي»

مسجد حورة نسخة من الجامع الكبير بصنعاء، وقريب من مسجد الهادي بصعدة.. (من حيث الاضلاع الرباعية)

صحيح أن الإمام أحمد هو الذي بنى المسجد، غير أن الاستاذ/ خالد حميد هو الذي يخطب في الناس، يدعوهم إلى السنة والجماعة.. لم أصدق ماكنت اسمع في مسجد حورة.

دعوة إلى التسامح وشيء من أطروحات الحركة الاسلامية.. أعتقد أن هذا هو التحول الحقيقي في اعتى قلاع الإمامة..

كان القاضي يحيى نصار في انتظارنا.. مقيله مفتوح

للجميع، أخلاقه دمثة للغاية.. وهو احد ابرز وجوه حجة.. قدم لنا كلمات ترحيب ومعلومات وابتسامات صادقة.. والتقينا عنده بآخر الأوفياء للزّي التقليدي لأهل حجة.

إنه الحاج حسن فرج الذي يعمل في بيت القاضي يحيى نصار.. في عمر القاضي الذي يعمل لديه.. يرتدي المقطب الأبيض، والبلق الأسود، يمشي الهوينا مشية من خبر الحياة أكثر مما ينبغي.. وسيم، وفي عينيه مسحة حزن وعتاب للزمن والاشياء...

لم نستسلم لحميمية المقيل ونشوة القات المُبَيّني الرائع.. فغادرنا حجة أمام بدايات كسل الغروب.. أمام رؤوس مصلوبة لأنها قاومت الانكسار.. أرواحاً ترفرف في سماء حجة.. قالت: لا.. وعاشت أبدية الألم..

وعلى ظهر سيارة جمال انعم، التي كانت على مستوى المسؤولية، غادرنا حجة.. وأثناء انسيابنا من عقبتها أمعنت في وجه صديقي جمال.. كان مرفرفاً وفي عينيه شيء إنساني عنيد.

لقد شحنته حجة وعلمته تأجيل التفاصيل اليومية الصغيرة، فعاد منها شجاعاً كمن اكتشف معجزة الحياة....

رداع

صراع الأزمنة

(لاتزيَل) فأنت تنحدر على ظهر سيارة، ثم إنك لست رداعياً قطع السهل مشياً على قدميه وعند أول مرتفع قال : عقبة الزيل تسمية ظالمة من يسمع عنها يتخيل عقبة سمارة أو عقبة (لودر) .

مجرد منحدر صغير إنساني ينساب على رحابة سهل سيطلعك بعد أقل من نصف ساعة على (رداع)..

إلى اليسار قرية (الكولة) .. كأنها أطلال عاصمة رومانية سحقتها حرب .. في أحد بيوت (الكولة) ولد القيصر أحمد الكولي ، الرجل الذي يؤلف النكتة وينسخها بمزحه لتتحول ذمار إلى مطبخ مفارقات وليؤكد الكولي أن الحياة مزحه مأساوية..

تنتظرون رداع وإذا بي أحدثكم عن الكولي وذمار ، ليس ذنبي .. فمن يملك الجرأة على تجاهل مراتع القيصر ؟ .. أنت الآن بعد عقبة الزيل على مسافة ٢٠ كم شرق مدينة ذمار .. والطريق سيء للغاية وعلى السائق أن يمشي بسرعة حمار، وإلا قلبته إحدى الحفر على وجهه .. هذا ان كان يقود هنا لأول مرة، عليه أيضا أن يراقب سيارات الهايلكس التي تحمل القات إلى صنعاء وإلا خسر حياته في صدام مع احد النعوش

الطائرة التي تسببت في حوادث كثيرة وحصلت على التسمية بجدارة .. ومنذ زمن ما قبل الحذاء وحتى أيام النعش الطائر (والمقوت) على عجلةٍ من أمره . وقديما قالوا : جزعة مقوّت .

ومع وعود السهل ونزق الحفر وصلنا (سنبان) .. قرية عادية يخترقها الطريق الضيق نشأ على جانبيه ما يشبه (سوق) ضمن حراك تجاري محدود نشأ على خلفية فلسفة الطريق .. تظل سنبان عادية بالنسبة للكثيرين باستثنائي، إذ كنت أعتقد في كل سنباني عقيد ، فقائد لواء اب ومدير مكتب الدفاع الوطني من سنبان ومعهما ارتبطت (العسكرية) بسنبان ..

من شمر يهرعش الى نسيم كشميم

ويبدو ان الطريق إلى رداع متخم بالمعالم الشخصية على الأقل .. غير أن ملاح .. أصبحت معلماً عالمياً .. صحيح ان المعلق الرياضي لا يقول : من ملاح إلا أن هذه القرية تمخضت وأخرجت نسيم كشميم .. قبضته الفولاذية غنية عن تعريفي .. وأروع ما في نسيم انه كرس فحولة ابناء (يعرب) وأذل الفرنجة في أكثر من موقعة ، بعد قرون من الإذلال .

نسيم وسيم ويمني وممتع وضربته نافذة ومباركة

وثمنها ما يساوي مئات الستين من حصاد موظف مثلي ومثلك .. ذلك كله أروع ما في نسيم .. وأسوأ ما فيه ان ابناء (ملاح) ورداع عموما كانوا كمن اكتشف كنزا سيتحول إلى مستشفيات ومدارس ومشروعات مياه .. غير أن نسيم خيب آمالهم (كما قالوا)، وتراجعت أحلامهم الى مدرسة صغيرة وسد أصغر لا تساوي تكلفتهما ثمن رصاص ليلة واحدة تحتفل فيها رداع بانتصار نسيم .. اذ تشتعل سماء رداع بملايين الأعيرة النارية عقب كل فوز .. بالاضافة إلى أن نسيم يتسبب في اقتراف الفضائية اليمنية نشيدا مروعاً بحق مشجعية الابرياء وعقب كل فوز .

تسلمك ملاح الى (العرش) أنها ضاحية من ضواحي مدينة رداع إسمها جميل كبيوت (قرية ملكية) تستحق التسمية .. تنبعث منها رائحة الاسترخاء تحت ضربات الشمس .. وهكذا وما إن وصلنا العرش حتى شعرت بحاجة إلى فرش، تحولت حكاية . ظل الزميل محمد مشرح يردد معالم الطريق ويستحضر خبرته وذاكرة الطفولة في رائحة المكان .. إذ أنه من أبناء رداع .. يعرف

الكثير عن التاريخ والإنسان في هذه المدينة الاستثنائية التي تفاجئك ولا تدري الا وأنت تدور في شوارعها الضيقة كثيرة المطبات .. في كل عشرة أمتار تقريباً، مطب ، وبين كل منعطف وآخر مطب .. التفسير جاهز، وهو أن المطبات تمنع القاتلين من الفرار ليست مجدية إذ أن التقارير تؤكد أنه كلما كثرت المطبات زادت معها أحداث الثأر، وتصفية الحسابات داخل مدينة لا تخيب ظنك فيها .. فرداع اسم له علاقة باللون البني .. يقولون رداع فتتذكر التراب والقهوة المركزة ومعطف مهترىء يرتدي ضابطاً في سبيله إلى التقاعد، وهكذا كان اللون البني ينبعث من النوافذ ومن جدران القلعة .

استقبلنا محمد البابلي بحفاوة لائقة بعاقل مدينة رداع .. (أهلا يا عاقل. كيف حالك يا عاقلنا..) الجميع يحيون البابلي بكلمات تلمس فيها التقدير والإمتنان لهذا الرجل صافحنا وكان عائداً للتو من زيارة صلح بين أسرتين، وهكذا يومياً يتغدى خارج منزله وينتقل بين أكثر من مقيل في مدينة مزدحمة بالمشكلات والمناسبات وجلسات رأب الصدع.

اخرج العاقل ورقة صغيرة من جيبة فردها قائلاً: هذا برنامجنا- المدينة القديمة، القلعة، العامرية ، سوق

السلاح، مشروع مياه ومجاري رداع .. والأخيرة أثارت تساولاً لدينا جميعاً- لماذا يريدنا أن نزور المجاري؟!

لست هنا بصدد سرد تفاصيل مملة بقدر ما أحاول أخذكم معي إلى تفاصيل رداع التي تشكل في الأخير صورة كلاسيكية لمدينة ليست عادية لمكان تتماهى فيه القرية والمدينة كأول انطباع، لأطلال تشارك في صنع الأحداث، لمكان تجد فيه أعتى قلعة حربية واجمل مدرسة تعليميه ولاننا لم نصعد الى القلعة بعد فيمكن الحديث عن أسماء المكان وعمومياته في الطريق إلى محاولة احتواء هذه المدينة الصغيرة.. في الطريق إلى القعلة التي تراها من كل شبر في رداع ستعرف ان المدينة القديمة كان لها أربعة أبواب- باب المحجري، الذي يمر منه شريان الماء إلى المدينة وباب المقلة (من مقلة العين) وباب الشجرة وباب السوق.. وأمام باب رداع وقفنا نراقب بإكبار صمود باب وحيد يرفض الانهيار والطللية.. ربما لأنه يقع في حلقوم المدينة، وربما لأنه أقرب الابواب إلى قلعة (شمّر يهرعش) التي منحته جزءاً من طاقتها الأسطورية وقدرتها على مقاومة عوامل التعرية -نوع من (تضامن المحاربين) .

لن تفهم القلعة لا من قلبها.. ومع خطواتك الأولى

صاعداً الى البوابة الغربية الرئيسة تشعر كمن يقترب من عملاق أصم: كمن يخاطر بالمرور بين قدمي وحش نائم مهول ، وما ان يحتويك الممر الرئيسي حتى تبدا في اكتشاف كم هي قلعة ضخمة وأكبر مما توقعت وكم هي أقل وحشية عمرها يتجاوز الألف وثمانمائة عام .. بناها الملك الحميري شمَّر يهرعش في اواخر القرن الميلادي الثاني.. يهرعش اول من لقب بملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت وفي رأي (فون ويزمن) ان يهرعش عاصر امرؤ القيس بن عمرو ملك الحيرة ويرجح البعض ان يهرعش لم يبدأ في الظهور إلا من العام ٢٧٠م ويقول عنه وهب بن منبه: إنه أعقل من وراءه من الملوك وأعلاهم همة سن قانوناً لأهل مأرب، نظم فيه البيوع والمعاملات وقام ببناء الحصون والاسواق وشق المصارف وبنى الاحواض للري .

هذه المعلومات وغيرها وجدت في نص (كاي. ٤٠٦) وكاي هذا لا أدري عنه شيئا ولا ادري لماذا الرقم (٤٠٦)؟! أدري فقط ان شمر انجز رائعة حربية على هيئة قلعة وان اسوا شيء هو الكتابة عن التاريخ اليمني القديم الذي لا يزال حصيلة تقديرات ومجازفات كسالى .

كلنا الوشاح

بعد البوابة الرئيسية والى اليسار تتكرر نفس الحكاية المنغصة على هيئة جملة معروفة (هنا كان الأئمة يزجون بمعارضيهم ويثقلون كواهلهم واباءهم بالقيود والمغالق) ..

السيء في الأمر أنني كلما حاولت تجنب الإمامة حتى لا أخسر صديقاً جديدا أجدهم أمامي دائما يعترضون طريقي في دهاليز القلاع وذكريات القضبان في حكايا تصف قرن طازج بالدمع والدم والاجهاض .. لقد لوثنا الأئمة ودمغونا بشهوة الإيذاء فأصبحنا مثلهم علمونا كيف نمسك بالسوط، وحولونا إلى جلادين نجلد التاريخ.. ونجلد الجلاد، وعندما تعُيينا الحيلة نجلد ذواتنا.. أسكنونا (الوشاح) وهكذا وبعد ثمانية وثلاثين عاماً (كلنا الوشاح) الممر الرئيسي يشبه شريانا ضخماً وقصيراً يؤدي لى قلب القلعة.. حصانة متقنة على هيئة اسوار عالية ضخمة ملتوية ومطعمة (بالنوب) جمع (نوبة) .

ومع نهاية الممر العظيم تسحبك البوابة الثانية (الشاهقة) إلى فناء القلعة الواسع.. ثمة مشاعر عدوانية وتحد يهبك إياها هذا المكان المتكبر العنيد .

ونتبدأ حسب الاولويات : تفقد مخازن المياه تحت قدميك عبر سُلم حجري ينحدر في عمق الفناء.. ست درجات وترى بركة عظيمة تكفي للصمود امام حصار طويل المدى.. لا يزال سقف البركة متماسكاً ولا تزال البركة مليئة بالماء وكأنها اكيدة من أن الحصار سيأتي مرةً أخرى .

تجول في فناء القلعة وانظر تحت قدميك وإلا وقعت في فوهة السرداب.. لا احد يدري إلى أين يفضي السرداب بالضبط.. إلى خلف التلة القريبة من المدينة.. إلى مناطق القبائل، إلى... وهكذا ظل سر السرداب وفيا لفلسفة القلعة، هوّة تسحب إلى غموض ومجازفة متعددة الإحتمالات .

في وسط الفناء يتربع خزان المياه الذي بُني حديثاً لصالح المدينة وحولّته القلعة إلى غرفة بلا معنى وكأنها ترفض الامتهان، كأن الخزان سينال من هيبتها وسطوتها تحت أزيز المضخات .

لذلك انفجرت الانابيب وفسروها بقوة الضغط الناشئ عن شدة الإنحدار وتحول الخزان الى طلل بلا معنى عمره بضع عشرة سنة.. وللقلعة تفسير يخصها..

ولفهم المدينة لنبدأ إطلالة من الغرب، إلى البعيد

ترى العرش والمصلى بنظامها العمراني المتجانس وبإمتداد العمران الحديث ا لعشوائي خلال المساحة الفاصلة بين رداع وضاحيتها الغربية على حساب البساتين القديمة، إلى يمينك الروضة حيث كانت حكراً على بني هاشم (السادة) كل بيت له حديقة خاصة، وضمن ثقافة الروضة حدث تنوع سكاني في الروضة حيث دخلها القضاة والقبائل وبعض البدو القدامى وقاسموا السادة أشياءً وخالطوهم إلا في (النسب) .

تدور بإتجاه عقارب الساعة لتأسرنا حارة الطشوش بدورها الشاهقة وإلى الخلف تلة القانع حيث كان اليهود يتمترسون خلف حرفيتهم ومداراتهم للآخرين..

ومع انسيابك خلف تكاثف المدينة بيوتاً وجمالا وألفة وعائلية تخضك الأسطح الرائعة للبيوت المزدحمة كعائلة كبيرة ودافئة .

تفشل احياناً عندما تقف امام ما يشبه الفن التشكيلي ذا القيمة الفنية العالية تشعر به تتفهمه ولا تفهمه، لا تمل تفسيرا لتفاصيل روعته وهذا بالضبط ما تفعله الأسطح الرائعة في رداع مختصرة ومصقولة حانية تصلح للقاء حميمي واعترافات ليلية تبدو الاسطح وكانها صنيعة ربة بيت حاذقة، ومتفانية فيها

براءه وقدرة على التربيت .

ومع محاولات اللحاق بتاريخ الجمال السكاني في رداع يجد المرء نفسه وقد وقع في فخ الأزمنة (يصلح هذا عنوان قصة خيال علمي) .

الفا عام من الترقب المنيع الصامت لقلعة تجمع حولها الناس في بيوت تبحث عن أمانٍ وحماية مقابل صناعة الحياة، والضجيج والأسطح الجميلة وكان هذه البيوت تحاول الاختباء خلف سطوة القعلة ومع تنامي المجتمع العائلي نشأت مدرسة العامرية. التي تدخل ضمن إطار الصورة.. لترى شمر يهرعش يهز راسه إعجاباً وأسفاً في انٍ واحد، بنى احفاده زحمة جميلة ومدرسة مبهرة وحولوا قلعته إلى سجن.. تقف في تماس ثلاثة ازمنة وثلاث دول (الحميريين وبني طاهر والأئمة) وحصيلة الأزمنة ان قامت القلعة بالثورة.. وصد الجمهوريين في رداع، ومن أحضان القعلة قاوموا نيران مدفعية الملكيين على مدى سنوات.. وفي هذه الجزئية بالتحديد عليك التخلي عن فضولك الصحفي الأرعن من كان مع الثورة ومن كان ضدها، وأسئلة أخرى.. وكن حذراً فربما ايقضت ثاراً ..! ينام على فوهة مدفع قديم .

قبل مغادرتنا لفت حارس القلعة (العجوز المتفائل) انتباهي بمشيته الهادئه الواثقة، وابتسامته اللامبالية الخبيرة.. اسمه العزي شريه .. أنفق معظم حياته غريباً في الولايات المتحدة.. كسب كثيراً وأنفق أكثر، طحنته التجارب في أوصفة نيويورك وازقة لاس فيغاس، فعل أشياء كثيرة- دار حول نفسه- داهمه الخوف والملل والحنين، فترك ناطحات السحاب وعاد الى قلعة يهرعش.. (اتروّح بيت جده) .

ثمة نقش حميري وحيد معلق أعلى الباب الرابع للقلعة، كأنه تحية وداع. إذ لا يُرى إلا مع المغادرة، لا يشكل النقش جزءا من البوابة، ولا علاقة له بما حوله، وكأنما وُضع في اللحظات الاخيرة من بناء القعلة كذكرى أو إسقاط واجب ثقافي .

وهكذا تجد ذات المعضلة في التأريخ اليمني القديم.. إذ لم يهتم ملوك الدويلات القديمة بتدوين التأريخ، مما تسبب في مشكلة الفجوات التأريخية، التي يتحدث عنها الباحثون كاحد العوائق الرئيسية في دراسة التأريخ اليمني القديم، كسلسلة أحداث وصيرورات (من اين جاءت صيرورات هذه..؟) .

في دهاليز القعلة يعُشعش الصمت الأبدي غير آبه

بضجيج عاقل وثلاثة صحفيين وكان الألفي سنة تحولت إلى عازل صوت أصم .

لم تمنحنا القلعة ولو سراً واحداً، وغادرناها مثقلين بالأسئلة.. وعلى رصيف الشارع الضيق الذي يمر امام القعلة، وقفت أحدق فيها ببلاهة، وعلى ايقاع هذا الصمت اللانهائي، كان (العيل) يأتي من بعيد ليستقر على صدر القعلة هكذا هو الحمام دائماً.. يسكن حيث الهدوء المنيع، للحمام علاقة ازلية بالقلاع والقصور والتاريخ الشاهق يجتذبها الصمت السامي انها الرقة الارستقراطية تسترخي على اطلال الجنود انوثة تبحث عن حماية مجانية.. ما أروع العيل والصمت والقعلة .

لاقطيعـــة

وبين القعلة ومدرسة العامرية ثلاثة عشر قرنا عليك اجتيازها خلال ثلاث دقائق، وعلى ايقاع صليل صمت قديم، وتباشير ضوء ومشاعر بيضاء بدأت تستعد للقاء العامرية، وحكايا الدولة الطاهرية، وعامر بن عبد الوهاب .

وبين القعلة والعامرية تتزاحم الانطباعات بين الفجوات التاريخية، فتنسى الحاضر (الشارع الضيق . الناس . مدخل السوق . البحث عن محل لبيع اقلام

التصوير...) الى ان ينتشلك إعلان قماشي مُعلق مكتوبٌ في نهايته (..والدعوة عامة للجميع) فتظن أن في الحكاية محاضرة أو ما شابه، واذا بها دعوة زفاف.. في هذه المدينة الصغيرة.. تُطبع دعوة زفاف واحدة لعائلة واحدة.. ها نحن امام مدرسة العامرية شخصياً عشرات العمال يتعلقون على جدران العامرية ضمن حركة ترميم نشطة انتظرها الجميع منذ سنوات ..

العامرية بيضاء ومهيبة بناها عامر بن عبد الوهاب الطاهري وعامر هو ابرز واخر ملوك الدولة الطاهرية، التي قامت على انقاض الدولة الرسولية.. خمسة وستون عاماً، هو عمر دولة بني طاهر (٨٥٨-٩٢٣هـ ، ١٤٥٥-١٥١٨م) كان الطاهريون يعملون نواباً لبني رسول في رداع، التي كانت تمثل نقطة تماس وخط دفاع في وجه التوسع الإمامي للدولة الزيدية.

خمسة وستون عاما من القلق السياسي ومحاولة ارساء دعائم الدولة.. بدأت بعامر بن طاهر وانتهت بعامر بن عبد الوهاب عمر قصير بمقاييس التاريخ.. خاض فيه الطاهريون صراعاً مريراً مع الدولة الزيدية والخارجية والقبائل، وبنوا فيه مدارس ومساجد وشقوا ا القنوات في مناطق نفوذهم حيث الاستقرار النسبي

في رداع، التي اتخذوا من المقرانة القريبة منها عاصمة لهم وكذلك في إب وتعز..

بينما ظلت صنعاء تتراوح بينهم وبين الأئمة الزيديين، فقد دخلوها واخرجوا منها عدة مرات ضمن صراع سياسي مذهبي لم يهدأ؛ اذ كان الطاهريون يمثلون ثقافة مناهضة للمذهب الزيدي مناطقياً ومذهبياً، وامتزجا ببعضهما ليشكلا سبباً رئيسياً لصراع لم يهدا..

توج عامر بن عبد الوهاب ملكاً في ذات العام الذي توفي فيه والده ٨٩٤ هـ وعلى مدى ثلاثة عقود مثلت النصف الثاني من تاريخ، وعمر الدولة الطاهرية خاض الملك عامر بن عبد الوهاب حروبا كثيرة ومحاولات خروج وانقسامات داخل الأسرة الحاكمة .. ورغم زحمة المعارك في عمر الدولة الطاهرية، إلا أنهم لم يكونوا ميالين إلى سفك الدماء والأخذ بالشبهة .. إهتموا بالبناء والتعليم وآثارهم أكبر دليل .. ولو لم تكن إلا مدرسة العامرية. هذه التحفة الفنية. بنيت العامرية عام ٩١٠هـ على يد عامر بن عبد الوهاب الذي تُنسب إليه..

وتؤكد أنّ ظلماً تاريخياً وقع على عامر بن عبد

الوهاب عندما اتهمه بعض كتبة التاريخ بالميل الى التدمير وقيادة حروب همجية ..

فمستحيل أن يقوم باني العامرية بتحويل الجامع الكبير بصنعاء الى اسطبل لخيله .. ناهيك عن اتهامه في عقيدته وأخلاقه .. لدرجة ان نسب إلية البعض قصيدة تدعو الى زواج الرجل بابنته، وتحليل شرب الخمر و... إلخ ، تمكنت القصيدة من تشويه عامر بن عبد الوهاب عند العامة .. ولا يزال البعض يرددها منسوبه اليه حتى يومنا .. مع أن القصيدة قيلت قبل قرون وربما أكثر .. وظهرت أول الأمر في الشام، وظلت تهمة معلقة تنسب كل مرة إلى عالم أو أمير امسى ضحية مؤامرة .. القصيدة معروفة تبدأ بـ (خذي الدف يا هذه واضربي....) .

دعك من هذا كله وادُخل العمرية من بابها الغربي لتعرف أي رجلٍ كان عامر، وتدرك حجم الردة الحضارية التي اقترفناها ..

ومن خلال زحام أعمال الترميم يبدو ابناء رداع كمن يؤدي واجباً تجاه عزيزٍ عليه، إلى اليمين حمامات المدرسة.. مغاطس الاستحمام فحسب توجه يساراً لترى الممر الطويل تحت سقف العقود القريبة إلى الأشكال

المثلثة.. جص ونو رة، وإضاءة خافتة، وليست موزعة جيداً ..

الطريق إلى الدور الثاني يمر من جوار (بركة كبيرة) إلى الخلف منها أطلال حمامات الفضلات، التي وضعت بطريقة ذكية، حيث يأتي سيل البركة ليسحب الفضلات عبر ممر مردوم إلى خارج المدينة.. سلالم حجرية وفناء وبوابتان وتصبح في الدور الثاني لتدخل إلى قلب العامرية حيث المسجد ذي القباب.. الملونة.. الآن فقط أدركت سر إهتمام الأوروبيين بالعامرية..

إنها اللوحات التي تشكل في الأخير لوحة واحدة تنساب عبر تضاريس القباب..

يبدو أن رسامي هذه اللوحات كانوا يمثلون حصيلة مراحل تطور الفن الإسلامي.. لايمكن تسمية هذا الابداع.. زخرفة.. وحدة عضوية تربط الاشكال ببعضها.. تبدأ من نمو بطيء للعقود والمثلثات والاشكال المتعددة.. وينمو اللون لتصل اللوحة إلى نهايتها عند القبة الشمالية الغربية، التي تمثل لوحتها اخر مرحلة في التشكيل..

لوحة القبة الشمالية الغربية مفاجأة بحق.. جديدة- لاتتكرر في نماذج الزخرفة الشرقية.. تعتمد على

تسلسل الأشكال الرباعية، وانطلاقها في أكثر من إتجاه.. وبتراتب لوني متعرج.. يوحي بالحركة.. والذي يمعن في هذه اللوحة يشعر وكأنها تحاول تنويمه مغناطيسياً.. تلمح فيها بذور مدرسة فنية جديدة، لاأحد يعلم شيئاً عن مبدعها.. لاشك أن فناناً واحداً أبدع لوحة العامرية.. ومات مباشرة.. وبالطبع لا أحد يعرف إسمه.. خمسة قرون ولاتزال أنامله تشتعل على سقف العامرية، وروحه تمد الأشكال بلونها المتجدد.

الكلام كثير واللوحة بعيدة عن متناول الكاميرا رغم محاولاتي البائسة.. ثم ان هذه المجلة غير ملونة، وإلا لأريتكم أي براعة وصل إليها اليمنيون فنانو القرن العاشر الهجري.. لوحة القبة الشمالية الغربية تمثل نهاية مرحلة، وبداية أخرى، لدراسة وبحث فلسفة اللون عند رسامي اليمن قبل خمسة قرون.

ما زالت العامرية تمنح رداع الكثير.. مما عجزت عنه الأزمنة اللاحقة.. وفي العامريه تتحول دهشتك وأنت مأخوذ بروعة الألوان.. إلى إعادة قراءة لتداعيات الضجيج حول القطيعة بين المسجد والإبداع.. لا قطيعة هنا، لقد تمكن الطاهريون من حل المعادلة، وقدمت العامرية نموذجاً منهلاً للعلاقة الروحية بين

الدين والفن.

منذ أواخر الثمانينات بدأ الإهتمام الأوروبي بالعامرية يأخذ شكلاً عميقاً.. قدّم الهولنديون ستة وخمسين ألف دولار تكاليف دراسة العامرية.. (ترميم المبنى وتنظيف الألوان).

أما الإيطاليون فقدموا مئة ألف دولار على شكل مواد ترميم وتذاكر سفر..

بدأ العمل في ٩٣م ووصل عام ٢٠٠٠م إلى ذروته. ولاتزال الألوان تشع في انتظار يد فنية تنفض عنها غبار القرون الخمسة.. يقول مديرعام الآثار برداع المهندس يحيى النصيري: إن التكلفة الإجمالية بلغت ٧٥٠ ألف دولار وأن أكثر من ١٧٠ عاملاً ينتشرون في أقسام العامرية..

إنتزعنا الرصاص من سطح العامرية.. لابد أن مأساة ولدت الآن، انها نيران قتل وليست نيران عرس كما يقول العاقل.. صوتها عدواني مركز، ولابد أنها اخترقت جسداً.. وعلى إثر الرصاص تدحرجنا الى السوق.

دكاكين متوسطة الحجم تتقابل على جانبي ممر قديم - جديد تداخلت فيه الازمنة حرفاً وسلعاً وأسماءً ومهناً.. الاقمشة الحديثة الى جوار صناعة الجنابي..

ولعب الاطفال الى جوار القنابل والبيّاع القديم إلى جوار الحرفي الجديد، وقريباً من تاجر كان في الماضي يعمل ضمن علية القوم فحسب.. وكهل سئم التعامل معه كتراث يستحق إلتقاط الصور.. هذا صانع الجنابي العادية.. وذلك الحاج محمد حجيرة يجلس أمام دكانه يحيى المارة، ويريهم إسمه في مذكرات المناضل العزي صالح السنيدار..

استأمنه الحاج محمد حجيرة على دكانه في عدن.. وعامله بإنسانية، فحاول رد الجميل بذكره في مذكراته بعد نصف قرن.. كلمات وجد فيها حجيرة رائحة الماضي ونبل العرفان.. يعرف رقم الصفحة وفي أي سطر بالتحديد.. يحتضن مذكرات السنيدار بشغف يفتحها ليري المارة أي رجلُ كان محمد حجيرة.. وهكذا يجد المرء عزاء في أيامه الأخيرة..

تضيق الدكاكين ويضيق الممر وتتكاثف بقايا رائحة السوق القديم.

وشاب يتحدث الى العاقل (رموا فضل- المستشفى.. الخ) وكأنه حدث عادي للغاية.. لقد فقد القتل قدرته على الإدهاش..

إذاً- ليس عرساً يا عاقل.. وسألت نفسي :لماذا نفرح

بالرصاص ونموت بالرصاص؟».

إلى اليسار طلل سمسرة قديمة، وإلى اليمين دهاليز خربه كانت تمثل قلب السوق.. ومن السوق إلى شارع متهالك، إلى سوق السلاح حيث اخترق الرصاص جسد فضل العباسي.. كان يجلس في دكانه بين القنابل والبنادق والقذائف والرصاص.. دكانه الآن مغلق وتجار سوق السلاح يتهامسون بأسف.. قال احدهم: ما دخلهم بفضل فضل رداعي.. (أي انه أصبح من ابناء المدينة ولم يعد له علاقة بالثأر والقبيلة) وكأن مدينة رداع بدأت تأخذ شكل هوية مُركبة.

نقلوا فضل الى المستشفى وحالته خطرة للغاية.. وفرْ الجناة بعد أن فتحوا عليه النيران بأعصاب باردة إعتادت الرصاص والدم.. لم يحدث شيء.. قد يموت فضل.. ويظل السوق يبيع وسائل الموت والصحفي يلتقط الصور وتمضي الحياة... كان أحدهم يصرخ: لاتصوروا تجيء الدولة تأخذ سلاحنا كلنا... روّحوا من باب دكاني.

غالباً ما تتحول مدينة رداع إلى ساحة تُصفّي القبائل المجاورة حساباتها اللانهائية في أزقتها... وخلال ثلاثة شهور (٣، ٤، ٥) قتل في رداع (٤٣) إنساناً...

ومن سوق السلاح إلى مشروع مجاري رداع.. أضخم مشروع مجاري في اليمن.. تبرعت الحكومة الهولندية بإنجازه وتحويله إلى أحد معالم المدينة.

سبعة احواض منظمة.. تصفية وتجفيف على أحدث الاساليب.. ورغم الرائحة اللعينة.. إلاّ أن المنظر كان يستحق الدهشة.

هكذا هم الاوروبيون يحولون الفضلات إلى منتجعات...

تستحوذ رداع على إهتمام الهولنديين تماماً.. رداع اول المستفيدين من الدعم الهولندي لليمن.. ترميم العامرية، ومشروع المجاري ومشروع المياه، سفلتة شوارع المدينة.. ناهيك عن دعم الجمعيات وتقديم المنح الدراسية لأبناء رداع.

أحد الظرفاء في رداع أرجع سبب اهتمام ملكة هولندا بهم الى انها تعتبرهم أخوالها.. لان أمها يهودية هاجرت مع أسرتها من رداع.

يلهث الزمن وهو يلاحقنا بين معالم رداع التي لايبدو لها نهاية..

وهكذا وجدتني ضيفاً في عرس متخم باللحم حد التعب.. وزعونا بين أكثر من عرس لأسباب تخص عاقل

المدينة وعلاقاته المتشابكة في مدينة تؤمن بواجب المشاركة في الأفراح والأتراح والغائب يعتبر خصماً حتى إشعار آخر...

تشبه المائدة موائد الريف المصري حيث يجلس الضيوف حول مائدة خشبية مستديرة يسميها الأشقاء الصعايدة «طبليه».. هؤلاء الناس كرماء يجيدون استقبال الضيف واقامة الولائم ويبالغون في عدد الذبائح... وبدأوا يتخلون عن اطلاق الرصاص في الأعراس بسبب ارتفاع معدلات القتل داخل المدينة وبسبب ضغط الاجهزة الامنية.

ربما تمكنت الدولة من تكميم أفواه بنادق الأعراس غير أنها أخفقت تماماً مع بنادق الثأر.. وهكذا انفجرت الاشتباكات في شوارع المدينة بعد ساعات من حادثة سوق السلاح.. إذ تنادى مقاتلو القبيلة التي ينتمي اليها الضحية للأخذ بالثأر فدخلوا رداع في نفس التوقيت الذي حاول فيه الجناة دخول المستشفى للإجهاز على ضحيتهم.

وكأننا في شوارع لاس فيجاس.. الرصاص كثيف ومدير أمن المدينة يقول لنا تلفونياً: على مسئولية قضاء كبير (نصف محافظة) ولدي إمكانات قسم

شرطة.. لقد اعتقلنا عدداً من المسلحين وفر الباقون...

الاتصال بمدير الامن كان تحصيل حاصل.. والأكيد أن أفراد الأمن مظلومون في هكذا أحداث ومناطق.. يواجه الجندي مقاتلين أشداء. يطلقون الرصاص بلا تردد. بينما عليه انتظار الأوامر، واذا قتل أحد أفراد القبيلة يتحمل الجندي رعب انتقام القبيلة وعقاب المسؤولين..

واذا تشجّع فقد حياته وانتهت قصته الى شهيد واجب يدفنونه ويرسلون لأطفاله «تنك سمن وكيس بر وثلاثين الف».

تزحف مدينة رداع باتجاه المدنية رغم عنف الشد العكسي الضاغط على المدينة من خارجها على شكل صراعات قبلية وجملة قناعات متوارثة كما هي...

ثمة شبابٌ تعلموا خارج البلاد وحصلوا على فرصة تأهيل تعليمي واجتماعي يجنح الى التعايش واحلام التغيير.

يتكون مجتمع رداع من ذات الفئات التي تتكرر في تركيبة المجتمع اليمني..

يتميز السادة الهاشميون في مدينة رداع بانهم اقل تمترساً خلف قناعاتهم السلالية السابقة، وبدأوا تكوين

شراكة اجتماعية ايجابية مع بقية الفئات.. وهم مسالمون على عكس السادة في مناطق القبائل الذين يفوقون القبائل احياناً في انغماسهم في دورات العنف.

يمثل القضاة نقطة تماس بين السادة والقبائل.. يحبون العلم والتميز والاستقرار.

أما الفئات الاخرى.. الذين يسكنون رداع فقد حصلوا على فرص كبيرة في التعليم والتجارة والوظيفة العامة، وتغيرت احوالهم كثيراً.. وخرج البعض من قائمة التمييز على أساس العمل بسبب تحول المهنة الى تجارة او انتاج زراعي يمارسه غيرهم من بقية الفئآت مثل (القشام) إذ لم تعد زراعة القشمي (البقل) محل انتقاص، فمعظم الناس يزرعونه بدون تحرج (تحول اجتماعي عل اساس انتاجي زراعي).

تمثل رداع نصف محافظة البيضاء من حيث عدد السكان.. ويحاول أعيانها جاهدين الانفصال عن البيضاء كمحافظة مستقلة بنفسها وتعود الى وضعها السابق قبل عام ١٩٧٣م، حيث ضمتها الدولة الى البيضاء.

اكثر من ٢٧٠ الف نسمة يتوزعون على خمس دوائر انتخابية يتقاسمها المؤتمر والاصلاح.. وهكذا وبهذه

الطريقة المملة سأكمل معكم بقية المعلومات مردداً: وفي رداع كلية تربية ومدارس البنين والبنات وفيها عدد من المشاريع الانمائية التي بنتها الثورة على حساب مملكة هولندا.. ولايزال اهل رداع يناضلون في سبيل الانفصال عن البيضاء ويحاولون اعداد ما يشبه الدراسات التي تفضي الى حتمية الانفصال من جغرافيا سكانية الى تضاريس ومناخ... الخ...

تغادر رداع قائلاً لنفسك: ماذا سأكتب؟

وتردد «شيبت وأنا اعلمش يا رداع».

لم احاول ان اعلمها شيئاً كما فعل الشاعر الخبزي الذي شاب هماً وكتب قصيدة جميلة من ضمنها:

«انا مروح حيث مأوى السباع

انتشق افواج الفراعة»

انه الماضي الحاضر.. بين الشنفرى والخبزي..

قال الأول: ولي دونكم أهلون سيدٌ عملّسٌ

وقال الثاني: أنا مروح حيث مأوى السباع وبينهما طريق طويل مثل حلم بالحرية.

احترس انت في ذمار،
أكبر مصنع للنكتة السياسية في اليمن

سائحاً أو صحفياً ، أو باحثا زائرا رجل أعمال أيا كنت ، فكلما تحتاجه في مدينة كهذه هو الحذر.

هذه المدينة متخمة بالمفارقات والثوابت والنكتة والقسوة ..

تاريخ ودويلات .. ذمار يهيرو احمد الكولي .. كرسي الزيدية وامبراطورية النكتة .. القبيلة والحزب .. المياه الجوفية والارض الجرداء .. الزلزال والمزاج المفاجئ .. كل القوة وكل السخرية .. كل القبيلة ونصف الحزب ..

من يمكنه إتخاذ القرار بين يدي القبيلة والتمترس ؟

كم قضيت في ذمار ؟ ماذا تعرف عن هذه المحافظة التي يمكنها تغيير المحافظ متى تشاء ؟

احترس انت في ذمار ..!

مدينة ذمار عاصمة المحافظة : الجزء الجنوبي من قاع جهران الشهير والفسيح والخصيب افتراضاً.

تسع مديريات هي مجمل التقسيم الإداري للمحافظة .. تنقسم الى إحدى وعشرين دائرة برلمانية، عدد سكانها ١,٠٤٩,١٢٠ نسمة حسب آخر إحصائيات وزارة التخطيط .

استقبلني طالبان جامعيان فور وصولي المدينة التي كانت تعيش الأحداث التي يصنعها رجال القبائل .

كانا يعرفان تفاصيل الأحداث ويشاركان في صنعها وهذا اول قانون من قوانين المحافظة .. الطالب والمحارب من قبيله واحده .

قبل ساعات من وصولي كان هناك سيارات تحمل مكبرات الصوت وتلقي بياناً تحذيريا الى أبناء «الحدا» بأن عليهم مغادرة المدينة خلال اربع وعشرين ساعة مالم فهم غير مسئولين عن الذي سيحدث لهم ..

التحذير باسم مشايخ ذمار إلا أن الجميع يعرفون اسبابه ومنفذيه.

قبل الغرق في تفاصيل البيان التحذيري كنت غارقاً في تفاصيل الجسد الملكي الذي رأيته في المتحف الوطني بصنعاء كان ذلك عبارة عن تمثالين لأحد أهم ملوك الطبقة الأولى للدولة الحميرية ١١٥ ق.م . الى ٥٢٥م، التمثالين هما القوة التي اسرتني ، الجاذبية والجمال .

في الدور الأول من المتحف الوطني تجدهما واقفين وكانهما خرجا للتو من معركة اسطورية بين صخور ذمار هذه الصخور التي التصقت بالتمثالين .

أمام هذه القوة والجمال كنت اقف وكانني اتحدث الى أخيل شخصياً (اخيل المحارب الأغريقي العظيم الذي

قاد الاغريق الى طروادة) بحثت في ذاكرتي عن إسم هذا الملك وعن إسم إبنه الشاب، انه ذمار علي بن يهير بن ياسر يهصدق وابنه يارث .

وهو الذي إختط مدينة ذمار، إمتدت فترة حكمة من ١٥ ق.م الى ٣٥م اي خمسين سنة .

تكرر هذا الإسم الملكي في أكثر من دولة وأكثر من فترة حكم .

فقبل الدولة الحميرية كان هناك ملوك الدولة السبئية ٨٥٠- ٧٥٠ق.م. هؤلاء هم ذمار علي ذرح بن يدع آل يبين ٧٣٠-٧٠٠ ق . م . ذمار وتار بن كرب ال يبين ٧٠٠-٦٨٠ق.م وهنين هما من ملوك العهد الاول في الدولة السبئية (عهد المكاربة) وكان هذاالعهد قد وقع بين عامي ٨٥٠-٦٢٠ق.م .

أما في العهد السبئي الثاني من ٦١٠-١١٥ ق.م فقد تكرر إسم ذمار في عدة فترات: ذمار علي يبين بن يدع آل وتار ٤١٠-٣٩٠ ق.م .

ذمار علي يبين بن سمه علي ينوف ٤٤٥-٤٣٠ ق.م .

ذمار علي ذرح بن اقمهار يهنعم ٢٧٠-٢٥ ق.م .

اما في الدولة الحميرية فقد اقتنى إسم ذمار أكثر من ملك :

ذمار علي بن يهير بن ياسر يهصدق - له تمثال مع إبنه في المتحف الوطني ١٥-٣٥م .

ذمار علي ذراح بن كرب آل ٧٠-٩٥م.

التحذير والاستهجان الذي قوبلنا به كان آخر تداعيات قضية الاعتداء الجنسي التي شغلت حيزا كبيرا في حياة الناس على مدى ثلاثة اشهر .

في ديسمبر ٩٧م قام اربعة اشخاص بالاعتداء الجنسي على فتى ينتمي الى قبيلة الحدا .

وهكذا استنفرت القبيلة ابناءها واحلافها..

دخل ابناء الحدا الى عاصمة المحافظة واقتحموا أحد مباني المنتزهات ومكثوا ثلاثة اسابيع حتى أصدرت المحكمة قرارا باعدام المتهم الاول وحبس الثلاثة الباقين وربما تاخر تنفيذ الحكم فوقع أربعة أطباء من روسيا في قبضة الحدا مختطفين حتى تقوم الدولة بتلبية رغبة القبيلة في عقاب الجناة. الاختطاف كان قد أصبح اسلوبا جديدا في حوار القبيلي والسياسي، كان للحدث قدرته على اثارة اجهزة الأمن والإعلام المحلي والدولي. الاطقم العسكرية جاوزت الستين ذهبت وعادت بخفي حنين، ولأن القبائل على اشكالها تتفاوض فقد

ذهب بعض مشائخ خولان واستبدلوا الأطباء الروس بابناء المشايخ كرهائن .

الرهائن أسلوب متبع في تأمين الحوار بين القبائل بعضها البعض، أو بين السلطة والقبائل، انها طريقة اكل عليها الدهر وشرب، لكنها لازالت في كامل عنفوانها، وهكذا توالت الاحداث الى إطلاق الرهائن واستبدالهم بسياح فرنسيين واطلاقهم في نفس اليوم، وآخر هولندي الجنسية يدير المعرض الدولي الزراعي في ذمار تم اطلاقه بعد عدة ايام، ورغم تطبيق حكم الإعدام على المتهم الأول إلا أن القضية ظلت مشتعلة .

آخر رقم في سلسلة الضغط على السلطة بالمختطفين كان إبن رئيس المحكمة العليا، حيث لجا الى البيان التحذيري الذي اخبرتكم عنه سلفا، انه قانون القبيلة وحده الذي يجيد القدرة على الفعل .

وهكذا ينضوي الطالب والفلاح والشيخ وقاطع الطريق تحت لواء القبيلة، حتى الحزب يبقى ترفا سياسيا، ويعجز القانون عن الفعل ويفشل في الحوار حتى اشعار آخر .

تتخذ أي قضية في ذمار نكهة خاصة ووجودا إستثنائيا، فهم ينامون مع الحدث ويستيقضون مع

التداعيات .

وتدخل تفاصيل الأحداث في تفاصيل الحياة اليومية فيصبحا شيئا واحدا، وهكذا يجد الجميع انفسهم معنيين بالطفل المعتدى عليه فهناك من اطلق النفير العام وآخر حمل سلاحه وغيره بدأ بتشكيل لجان متابعة وهكذا .

كان الدور المنوط بخبراء النكتة عظيماً فقد وجدوا أنفسهم امام حدث يستحق الايقاع الهازل كواجب قومي وليس ترفاً أو ترفيها .

بعد انتشار خبر الجريمة بأيام. جريمة الاعتداء الجنسي. إتصل احد رجال السياسة الكبار بصاحب اكبر شركة لتصدير النكتة الى خارج ذمار. احمد الفضلي وبدأ يسأله عن احواله فكان رده سريعا . إنني الآن مخزن وألبس اثنى عشر سروالا..

وهكذا يصبح للسخرية قوانينها النفسية والاقتصادية والتاريخية ايضاً .

دائماً يسخرون من الأحداث والشخصيات بإسلوب حصيف ورائع في آن واحد.

وبفعل النكتة تمكنوا من تغيير بعض المحافظين الذين لم يتمكنوا من تقديم شيئ ملموس أو النجاة

من الاخطاء ..

وبالنكتة يروحون عن أنفسهم ويحاولون صناعة عالم أقل قبحا وعشوائية .

ربما تاتي بعد الحدث فتؤثر في اتجاهه وأحيانا هي التي تصنع راي الشارع في ذمار .

النكتة في ذمار تملك تاريخا عريقا صنع الصورة غير التقليدية عن الذماري الحصيف المخادع والساخر .

ولذلك فالذماري دائما يتكرر كمنتصر في لعبة الخداع بينه وبين الصنعاني، أو بينه وبين الطبيعة ذاتها .

والذي لا يجيد صناعة النكتة يجيد القاءها أو يتمكن من التعاطي معها، وبهذا إكتسبت مشروعية البقاء والاعتراف بدورها .

ولذلك فالنكتة هي افتتاحية معظم مجالس القات وفي هذا الظرف تسمى «الزبجة» فلان يزبج على فلان، وهكذا تتخذ السخرية أكثر من وجه وأكثر من توقيت .

لذلك لا تقع في الحيرة عندما تجد برميل قمامة مكتوب عليه «ابتسم انت في ذمار» أو تقع في بعض الشراك، كأن تشارك في جنازة على أمل نيل الثواب أو كعمل مدفوع بالشهامة .

فربما تسير مع الجنازة وتدفع الكثير من وقتك وصوتك، وربما تذرف بعض الدموع قائلاً كل من عليها فان. وعندما تسأل عن إسم المرحوم ستجد الذي وافقته الى مثواه الأخير جهاز تلفزيون، أو بيان حكومي، أو حتى مصطلح سياسي، وربما يكون صاحب هذه الجنازة العظيمة ضفدعاً عجوزاً قتل مظلوما. وهم لا يجدون سبباً في تبرير عمل كهذا، فواجبك أن تكون كيِّساً متفهما بسهولة لماذا دفنوا التلفزيون مثلاً؟ هم يقولون انه يكذب حتى في كذبه فقد مات التلفزيون من شدة الكذب .

لذلك فليس أليق به من قبر مريع ونعش حقيقي ومشيعين، وربما يبكي بعضهم لتكتمل عناصر الفجيعة، ولكي يجتمع المشيعون لابد أن يقوم المعني بالجنازة بدفع ٢٠٠ ريال أجور اعلان الوفاة .

المائتا ريال ومكبرات الصوت تتكرر بشكل شبه يومي فكبار السن في ذمار كثيرون وربما يكون المرحوم من عليه القوم فيترتب على ذلك ارتفاع اجور الاعلان: انتقل الى رحمة الله فلان ابن فلان من حارة فلان ...الخ .

أما إذا كان الفقيد جهاز تلفزيون أو مصطلح سياسي

فربما يحظى باكثر من مائة اعلان وفاة مجانا لسبب بسيط، لأنه يحظى بشماتة الجميع ولعنات الجميع ايضاً .

أكثر من ساعة ونصف أيضاً وأنا أبحث عن مطعم نظيف . وفي منتصف شارع رداع وجدته، كان نظيفا كما أردت، سألت المباشر هل يوجد غداء يا اخي ؟

قال : فيه سحور يا اخي .

بقدر ما أغضبني رده بقدر ما ضحكت، اكتشفت فيما بعد أن التوقيت هو الثامنة صباحا وكان ينبغي ان اقول فيه صبوح ؟

اكتشفت أيضا أن هذا الذي سخر مني هو من حزم العدين ،بالفعل من عاشر القوم اربعين يوما .... هكذا هي ذمار القبيلة والنكتة والمحافظة .

واذا لم تجب نداء القبيلة (النكف) ستجد نفسك بدون حماية، واذا كنت ثقيل الظل (مع أن الظل ليس له وزن إلا في ذمار) اذا كنت كذلك فلن تجد من يدعوك للمقيل وستموت كآبة .

أما إذا لم تكن محافظا فقد يطالبون بجلدك أمام العامة، وإذا كنت سيئ الحظ وحالتك تلك فسيقومون

باختطاف رئيس دولة يزور اليمن حتى تقوم السلطات بإعدامك .

هذه هي ثلاثية أهل ذمار: القبيلة السخرية والمحافظة . ربما تظنها التزامات أكثر سهولة من قراءة ثلاثية نجيب محفوظ. لا تظن ذلك مطلقا . إنه ميراث أكثر من الف عام .

يكفي ذمار استثنائية وغرابة أن تجد فيها من يعيشون على مردود النكتة. يدفع إيجار المنزل ويشتري القات يوميا ويحصل على الكثير، إنها مهنته أن يسخر من الاحداث ومن الناس ومن نفسه .

أبرز هؤلاء هو اسماعيل السعادي ، الذي لم أتمكن من لقائه لسوء حظي أو أنه ربما كان أحد المشاركين في تداعيات الأحداث الأخيرة أو لسوء الأحوال المعيشية، هكذا هي قضاياهم القومية ليست حكرا على أحد .

اما قيصر النكتة في ذمار فهو رجل علمته الأيام كيف ومتى ومع من يتناول حديث السخرية، إنه أحمد الكولي .

بحثت عن القيصر الكولي كثيرا، وعندما رأيته لأول وهله قلت في نفسي هذا رجل في خريف العمر، يجلس هكذا القرفصاء ساهما ومطرقا . ربما يصلح هذا

الإنسان لرواية قصة مقتل الحسين في كربلاء أو الحديث عن الديون أو يكون مثقفا فيختصر لك احدى روايات كافكا .. استاذنته بالإنصراف لعدة دقائق بعد أن قدمت نفسي له، كنت بهذه الدقائق أريد أن أمنحه فرصة لاستجماع ما تبقى لديه من قدرة على السخرية .

عدت اليه وكان يجلس كما تركته وبعد اول جملة ترحيب منه وسؤال عن الحال مني اجابني عن حاله بمجموعة من التعليقات التي تصلح لان تكون تعليقات لأبرع رسام كاريكاتور .

ظلت غمامة حزنٍ عميق لاسبيل إلى شفاته تلفوح في عينيه إلا انه كان قادرا على تحويل المأساة الى ملهاة .

وبقدر ما كنت أضحك بعد كل كلمة يلقيها بقدر ما شعرت أنه ضحك كالبكاء .

الكولي هو الوجه الحقيقي للمدينة التي تحاول الإبقاء على الابتسامة وتغيير الأوضاع .

لذلك فهو لا يؤمن بالتعصب القبلي فهو يسخر منه كثيرا، أثناء الحديث مرت سيارة إعلان الوفيات عبر مكبرات الصوت، كان تعليقه على الحدث أن الرجل ربما

مات من شدة التصفيق لعضو مجلس النواب عن دائرته.

الكولي أخبرني أنه مواطن يمني تجاوز الخامسة والأربعين من العمر، يجيد القراءة والقليل من الكتابة (يجيد الكتابة الصحفية) لذلك فقد رشح نفسه في الانتخابات الأخيرة، وقدم لي بعضا من ملصقاته الدعائية الملصق عبارة عن صورة لأكثر من عشرة اطفال يرفعون ايديهم بالسلام الذي يكون عادة اثناء سماع موسيقى النشيد الوطني الأطفال يبدو عليهم البؤس والبراءة، وأحمد الكولي ، يجلس بينهم في هذه الصورة ويقول اخي الناخب صوت لاخيك المعول ، المرشح ذو ثقافة عالية قرأ لسيف بن ذي يزن، عنترة بن شداد، وفي الأدب قرأ لإبن الملوح ، وبنت الصحن ».

وأسهب الكولي في حديث الذكريات عن الدجاجة التي كانت تملك رجلين، اما الان فهو ربما يرى دجاجة مطبوخة في بيته فيرحب بها بشدة ويخبر أطفاله أنها كانت تملك رجلين لكنها نسيت أحداهما أثناء مشاركتها في إحدى الدورات الرياضية .

قال الكولي : إنه انسحب قبل الاقتراع لأسباب لم يعد يتذكرها .. أحلام الكولي الآن تتشكل في رغبة الخروج من هذه البلاد الى أي مكان، فالراتب لا يكفي لأكثر من أسبوع، وهو يعمل الآن في إحدى شركات الأدوية.

لديه الكثير من الحزن والسخرية والأولاد والذكريات، لذلك فقد أمسك بتلابيبي وجعلني افكر بطريقة اخرى عن الحرية والكرامة، عن القيصر الذي مل صياغة مبررات تقيه من ردة فعل غاضبة بسبب تعليقه القاسي على بعض الشخصيات والأحداث .

والكولي قصة تسكن الوجدان والذاكرة، هذا الإنسان هو اختصار لتداخل المأساة بالملهاة، قصة الوطن الذي يلعق جراحه ويحاول الضحك في آن واحد .

صافحته مودعا ومعتذرا عن قبول دعوته الصادقة الى تناول طعام الغداء . الحاصل بلهجة أهل اب . .

لم يقتحمني شخص في حياتي بهذه السرعة، قلت في نفسي هذا خيل جامح وأصيل أسيئت معاملته فظل محتفظا بشموخه لكنه غرق في البحث عن سهل آخر يمارس فيه قدرته على الركض والإباء .

كغيرها من مدن الجمهورية فيها البناء العشوائي والمتسولون والمجانين، أما العشوائية والقمامة فلها حديث آخر، وأما المتسول الصغير ذو الثياب الممزقة فقد رفضت طلبه أول الامر، لكنه كرر طلب العشرين ريالا وكأنها دين قديم عندي وآن وقت سداده، كان يلح في الطلب (هات حقي العشرين) كان متحفزا فقلت في

نفسي «لاحظ أنني في ذمار» دائما أقول في نفسي، احتياطات امنية طبعاً، المهم انني قلت ربما يكون هذا الطفل قبيلي فيعلن النكف ضدي فاعطيته ما يريده صاغرا .

البعض يأسف لظاهرة انتشار المجانين بشكل مخيف للغاية، وكان الكولي قد اخبرني عن صنف من هؤلاء المجانين .

رأيت أحدهم في أول شارع رداع، لم أقل في نفسي شيئا رغم أنه بدا كأحد افراد قبيلة افريقية من أكلة لحوم البشر بشع ورث للغاية، يحمل فأسا حادة كبيرة، هل ظل هذا البدائي طريقة الى أهله حيث الاحراش والدماء ..؟ هذا المجنون النموذجي أحد أفراد قبيلة المقدشي التي تثير الرعب في قلوب الجميع لما يعرفونه عنهم من وحشية وجراة وموت للقلب .. مجانين هذه القبيلة التي تبعد ٣٥ كيلو مترا شرق المدينة .. يجوبون الشوارع ليثيروا الرعب والشفقة والإحباط في آن واحد .

أحدهم يمر يوميا على المحلات التجارية ويطرح بعض الأسئلة الصعبة التي لا يدرى أحد من أين ياتي بها:

كأن يقف والفأس في يده اليمنى يهزها بعنف سائلا :

كيف ياخبير .. أصحاب السعودية هايردوا أرضنا والا ...؟

لكنهم يجيبون بأدب ولهفة إجابة واحدة :

نعم نعم هايردوها ولا تهتم فالأمور تمام .

يقولون عن هذه الظاهرة : (مجنون ومقدشي ومسلح) لبيان مدى خطورة هذا الإنسان .

يعرف الجميع أن هذا المجنون في ذمته عشرات القتلى فهل لعبت بتفكيره ارواح ضحاياه ؟ هو لم يكن يملك تفكيرا أصلا ..

ورغم ا لجنون والفأس والمقدشية إلا أنه الآن ليس خطرا بقدر ما هو غارق في خطر رصاصة الثأر التي ستثقبه لا محالة إذ لا توجد أسرة الا ولها في ذمة أسرة أخرى دين من الجثث واليتامى وعليها مثل ما لها لقبيلة اخرى .

مسلسل من العنف والعنف المضاد لا يتوقف البتة ربما يلتقطون أنفاسهم أثناء الأحداث العامة إلا أن عنجهية القوة ونزق الرصاص شرف لا يمكن التخلي عنه أو إخضاعه لحسابات ومتغيرات جديدة، وهذه أهم مشكلة يعانيها بعض أبناء القبائل الذين يحلمون بحياة أكثر أمناً.

كنت أسال طالب الشريعة والقانون جامعة صنعاء: أليس هناك بدائل أخرى؟ أجابني إن القتل والثار تعد من الثوابت التي يعتبر التخلص منها بمثابة الردة .!!!!

طالب آخر وجدتني أساله عن هموم الدراسة والمكتبات وضيق القاعات، لكنه كان مهموما لأن على قبيلته خمسة قتلى، وأنه يشعر أن بنادق القبيلة الأخرى ستحصده ضمن حسابات القروض التي ستتجاوز الخمسة، نوع من الربا وعشوائية الاسترداد. ولا أحد يستهجن هذه الفلسفة البشعة .

ربما فكرت في زيارة بعض المناطق الاثرية ومقر بعض القبائل .. لكنني أدركت أن زيارة لمنطقة كالمقادشة يعتبر بحق مغامرة وتهور ففي بعض المناطق لن تتمكن من قراءة الوضع وفق نظرية بحت معينة .

في المقادشة اظن التاريخ قد فقد عنصر الصيرورة ولذلك فقد قفز بي خيالي لدرجة التساؤل هل يوجد هناك ديناصورات ؟

أو ربما يعيشون مع مخلوقات وكائنات خرافية .. وإذا قمت بزيارتهم فربما يصادف يوم وصولك تاريخا مقدسا لديهم. كعيد الموتى مثلا عند بعض قبائل أمريكا الجنوبية، والذي يكون الغريب فيه وجبه دسمة للسكان .

تذكرت أن أمامي بدائل أخرى للزيارات فإن لم تكن المغامرة بزيارة الآثار فلتكن المدرسة الشمسية حيث البناء التاريخي والتاريخ المذهبي ورائحة التعليم الاولى .

ستركب تلك الحافلة الكبيرة، وإخبر السائق أن يضعك في سوق الربوع، وهناك ستجد المدرسة الشمسية (هكذا قال لي احد الاصدقاء الجدد والذي عرفته في ذمار).

الحافلة تتسع لأربع وعشرين راكباً لم يكن بها سوى ثلاثة ركاب انضممت اليهم وتحرك السائق قانعا بهذا العدد الضئيل .

هذا سوق الربوع يا أخي .. انزل هنا وإسأل عن المدرسة، كان الظلام قد خيم على المدينة إلا أن معظم الباعة لا يزالون منهمكين في عملهم وكذلك الحرفيين.

قال لي بائع الحبوب أحمد نهدي ، تصورني وحدي والا مع المداعة؟ التقطت له صورة كان يسأل متى سيراها وفي اي مجلة؟ بعد أن أخبرني عن بعض الاصناف التي يبيعها وعن أهمية القراءة والمعلومات .

بعده بقليل كان صاحب المهنة العزيزة على أهالي ذمار (الحدادة) يمارس عمله مع ابنه والعرق يسيل منهما دون توقف .

صورة صدق ولا كذب ؟ هكذا سألني وأخبرني انه ورث هذه المهنة عن أبيه عن جده عن ..عن .. الخ، وتركته قبل أن يقول عن ابي هريرة، كنت واقفا أمام الباب الخارجي للمدرسة الشمسية، ودون أن أدري دخلت من الباب الرئيسي ووقفت في المصلى الخارجي، ثمة غرف تنتشر على جانب الساحة كانت تسمى غرف الطلبة .

وقبل إنضمامي الى صفوف الصلاة أدركت أنني وحدي من سيصلي وهو يضم يديه والجميع مسربلون .

عندما سلم الإمام حاولت الاقتراب منه فقام ليصلي بعض النوافل بينما تجولت في أنحاء المدرسة، هنا جلس البردوني وتعلم الفقه والقران، وفي تلك الغرفة التي تبدو مهجورة كان ينام ويتناول طعامه، بناها الامام شرف الدين ابن شمس الدين بأمر من والده، ولهذا سميت بإسمه، كان بناؤها سنة ٩٤٠هـ.

وظلت تمارس دورها في التعليم والتربية على مدى قرون فاخرجت الكثير من العلماء والشعراء والذين كان لهم دور بارز في التأليف والإصلاح الاجتماعي .

كان أبرز خريجيها المناضل المعروف الشهيد زيد بن علي الموشكي الذي أعدمه الامام احمد اثر فشل ثورة ٤٨م .

وظلت أحد أهم روافد الفقه الزيدي في اليمن وكانت المرجع الفقهي الذي أضاف الى أن تصبح ذمار كرسي الزيدية .

هذا بالطبع كان ناتجا عن رفدها بالعلماء الذين تعلموا في صعدة، واكتسبت ذمار هذه المكانة التاريخية بسبب علاقة الحكام بهذا المذهب على مدى قرون .

والكثير من تلاميذ الهادي يحيى بن الحسين في صعدة كانوا من ذمار، وكان أبرز الأئمة والعلماء قد تتلمذوا على يد الامام يحيى بن حمزة الذي درس في صعدة وتفرغ للتعليم فيما بعد في ذمار .

ولا زال البعض من سكان ذمار يتبركون بقبره الواقع بين هران وقرية المواهب من ضواحي مدينة ذمار .

يجمع الكثيرون على التحولات التي طرأت على أهالي ذمار في هذا الجانب، فقبل عشر سنوات أو أكثر قليلا لم يكن يجرؤ أحد على التأمين خلف الإمام أو الضم أو نقد التشيع... كل هذا التشيع والمرجعية الفقهية تتزاحم في ذاكرتي وكدت انسى السلام على ذلك الكهل الذي يبدو وكأنه لا يكترث بالتحولات لا يزال يلبس القميص الأبيض والحزام التقليدي الذي كان يرتديه الأئمة والأمراء والعلماء والقضاة، اقتربت

منه وبدات اسأله عن المدرسة وتاريخها، كان يبدو عليه بعض السخرية من الناس الذين تركوا أبناءهم يتعلمون خارج المدرسة، لم يبق احد ليتعلم علما نافعا، كل هذا الوقار والقدرة على استرجاع بعض الاحداث عن طريق ذاكرة تجاوزت التسعين عاما.

رجوته أن يقف حتى أتمكن من التقاط صورة تذكارية له وعندها أدركت أنه ضرير فاكتملت اللوحة في وجداني التي تحوي القرآن والفقه والمدرسة القديمة والعمى.

لكن البردوني تجاوز أحلامنا وأضاف الشعر والسريالية ... أكثر مسببات تراجع الدور التعليمي للمدرسة هو انتشار المدارس الحكومية ذات المنهج الشامل الغير مذهبي، وهو ناتج بطبيعة الحال عن التحولات السياسية، تراجعت سطوة المذهب ومرجعية المدرسة لصالح بعض الفرق الحزبية، وبقيت القبيلة في كامل عنفوانها وقدرتها على ممارسة شعائرها العريقة، وظل مجتمع ذمار محافظا على تقاليده لأن سكان المدينة هم أصلا من أبناء عنس والحدا أكبر قبيلتين في ذمار.

هذه الحساسية تجاه عمل المرأة والتعاطي معها تتجلى في الكثير من الممارسات.

كانت الفتاة تسألني عن معهد تعليم اللغات وأنا اقسم لها أنني لا أدري مكانه، وهي تحاول أن تخبرني ببعض المعطيات المكانية التي تساعدني على تذكر الموقع وأنا اخبرها أنني لست من ذمار.

اثناء ذلك كله كانت نظرات الاستنكار تكاد تثقب جمجمتي وشرشفها لاننا نقف ونتحدث هكذا على الرصيف وامام المارة.

القضية عندهم اخلاقية منبثقة عن الشرف القبلي والتعاليم الدينية ولذلك فأطباق الاستقبال الفضائية شبه معدومة.

وكان احد المدرسين الذماريين قد أخبرني أن الجميع يستنكرون عملا يظنونه لا ياتي الا من واحد غير اصيل (ليس قبيلي) هذا العمل هو شراء الديش الذي يعرض السفاهة التي يقوم بها النصارى عنوة لتدمير المسلمين وهكذا هم دائما يثأرون ويسخرون ويحافظون على حذرهم في الجانب الأخلاقي.

موجة المشائخ تجتاح اليمن كالطاعون وليس ذمار وحدها التي تعيش هذه التقليعة الاجتماعية التي صنعتها التوجهات السياسية، لتكاثر القادرين على حشد الجماهير فيسهل ذلك من مهام الذين يريدون

استقطاب الأصوات الانتخابية باقل جهد ووقت ممكن .

فالمشايخ القدامى سيرضخون أمام ضغوط المشايخ الجـدد الذين يكون إغـراؤهم كـفـيل بتـجـاوبهم مع الكلاسيكية السياسية مقابل بعض الامتيازات فهم قد أصبحوا قوى جديدة ليس لديها ما تخسره .

فـلا أحـد يسـأل عن الخـاسـر في هذه اللعبـة التي أصبحت أكثر ضمانا للربح وهو توفير المجهود الذي يسـتـهلكه النزول الى الناس والتـعـاطي مع الامـهم وتطلعاتهم بايجابية .

في هذه المحـافظة ينبـهـر الناس بالميل مـيلة واحـدة على رأس قبيلة أو حزب أو قناعات استثنائية .

هم يعيشون من قناعاتهم الجديدة المختلفة بالزحام حول الخطوة التي تمكن من الحشد اولا، فالذي يبادر الى صناعة ملتفين حوله سيجد الجميع وقد التفوا حول من سبقهم وهكذا .

في الانتخابات الأخيرة كانت النتائج قد عرفت قبل انتهاء الاقتراع بساعات، فهؤلاء الناس لديهم موهبة فذة في القيام قومة رجل واحد لايهم الى اين ..؟ المهم «مع اخوتك مخطئ ولا وحدك مصيب»

كـان أحـد الصـحـفيين يغطي فـعـاليات الانتـخـابات

الأخيرة ويراقب سيرها، وعندما سأله رئيس التحرير عبر الهاتف وقبل اغلاق الصناديق بأكثر من ساعة سأله عن انطباعاته حول إقبال الناس وطريقة تعاطيهم مع ابي الحقوق الديمقراطية (الاقتراع الحر) أجاب قائلاً : أهل ذمار قد أظهروا النتائج وشكلوا الحكومة وخرج الإصلاح إلى المعارضة .

استـقـراء الراي واتجاهات الشارع او الزقاق في ذمار يمكن لأي إنسـان تقـصـيـهـا بسـهـولة، ومن ثم تكون استنتاجاته أكثر دقة من نتائج استطلاعات الصحف الأمريكية حول الأكثر حظا في دخول البيت الأبيض .

وهم يؤمنون أن كل شيء في مكانه وأن كل واجب له أسلوبه وتوقيته، رجال القبائل مهتمون كثيرا بالصلاة والمحـافظة على الجـانب الأخـلاقي، ويقـتـلون بكل بساطة..

كنت قبل مغادرتي للمدرسة الشمسية قد لاحظت وجود ترسانة متحركة من الأسلحة يحملها قبيلي أشعث، رفض الوقوف امام الكاميرا، كان قد أدى نوافل الصلاة التي تلي صلاة العشاء .

وربما صلى ركعتين تقربا لله وليس بعيدا أن يذهب لقتل شخص أو أكثر ثم يأوي الى فراشه بعد يوم قد

ظنه مملا رغم انه قد أدى واجباته كاملة .

الجميع قبائل يقتسمون النكتة ويواصل ابناءهم تعليمهم الجامعي ليلبي نداء القبيلة مؤجلا الجامعة أو يوبخ الدكتور الذي تجاوز حدوده في تبادل التعليقات والنكات مع الطالبات أثناء فترة الاستراحة .

دخل هذا الدكتور الجامعي في معركة غير متكافئة مع طلبته الذين أجمعوا على تجاوزه لحدود الأخلاق في التعامل مع الطالبات .

الدكتور يدخل القاعة فيقوم جميع الطلبة بالمغادرة وتركه يحاضر الكراسي، وهكذا تمترس الطلبة في وجه الـ (الدكتور) حتى رضخت إدارة الجامعة إلى طلب نقله .

في ذمار اكثر من ثمانية الاف طالب جامعي يتوزعون على سبع كليات أهمها: طب الأسنان، التربية والعلوم التطبيقية، لكن مشاكلهم تكمن في ميراثهم الاجتماعي أكثر من مشاكل المكتبات وضيق القاعات .

قال أحد التربويين في نقابة المعلمين ان هؤلاء الشباب المتعلمين ينقصهم الوعي بدورهم كمتعلمين وغالبا ما يغرقون في تفاصيل الثأر والصراع على المشيخة وهذه احدى الظواهر في ذمار إزدحام مصلحة

شؤون القبائل بالحاصلين على بطاقة الشيخ أو العاملين أو الرافضين لقرار مكتب المصلحة باعتبار فلان شيخاً .

يالها من محافظة بقدر ماهي محافظة (بكسر الفاء) بقدر ماهي مزاجية تصنع الشخصيات في دقائق وتهشمها في ثوان .

كلما يمكن قوله عن ذمار يظل غير ممكن القبول به بسرعة .

كل هذا الرفض للسير مع التاريخ، كل النظم المعرفية القديمة التي تولد من جديد لا يمكنها الإفلات من أيدي هؤلاء الذين لا يرضون لها بديلا

ولان ذاكرتي قد ملئت بحيثيات التنكر للمدنيه التي من بعض نتائجها النظافة إلا أن مدينة ذمار نظيفة بالمقارنة مع عاصمة الجمهورية أو بقية عواصم المحافظات .

الأرصفة نظيفة وبراميل القمامة تنتشر في كل مكان.

علمت فيما بعد أن القضية ليست في أن القبائل رغم انهم يقتلون بعضهم ويختطفون الأجانب فهم يفضلون النظافة .. لا ليس الامر هكذا، إنه مشروع النظافة

الهولندي الذي يتابع نظافة المدينة بشكل مستمر ويمول تكاليف الحفاظ على المدينة نظيفة بقدر الممكن.

هولندا مهتمة بهذه المحافظة كثيرا، فإلى جانب مشروع النظافة هناك المركز الزراعي الهولندي الذي كان يقيم معرضا للمنتجات والمعدات والدورات التأهيلية الزراعية، انه المعرض الزراعي اليمني الهولندي الدولي الأول)، إسم طويل أليس كذلك ؟ لفت انتباهي الى المعرض حديث أحد ركاب الباص عن الهولنديين :

_مجانين الهولنديين ما ناقص إلا القرود تربيها، هكذا قال الرجل وبالفعل كان هناك فعالية يقيمها المعرض ضمن انشطته وهي مسابقة في تربية الثيران والقرود والماعز.

- أردف الرجل قائلا: لمه ما يعملوا مسابقة لتربية الكلاب ..؟ واحنا ندي لهم أحسن كلاب ، وفورا تذكرت قصة الكلاب التي شحنها اهل ذمار على ظهر قاطرة وأفرغوها دفعة واحدة في يريم، فظل أهل يريم في بيوتهم طوال الليل ولم يتمكنوا من الخروج لصلاة الفجر بسبب الاشتباكات العنيفة التي اندلعت بين

كلاب يريم وبين الكلاب القادمة من ذمار ، كان ذلك في الثمانينات كأحد فصول الصراع الأبيض بين ذمار ويريم، صراع سلاحه النكتة والمقالب المضحكة، إنها علاقة مسلية عمرها قرون ولا زالت مستمرة إلى اليوم، فكل يوم ترسل كل مدينة قذيفة جديدة على الأخرى هذه القذيفة لا بد أن تثير ضحك الجميع .

المعرض الزراعي الهولندي اقيم في الفترة من ٢٠-٢٨ فبراير، أجنحة كثيرة لعرض منتجات الكثير من الشركات اليمنية والهولندية المشاركة في المعرض .

ومحاضرات عن أسلوب الري الحديث التقطير واللقاح ومكافحة الآفات الزراعية .

هذه المحافظة تتربع على بحيرة مائية عظيمة كما تقول الكثير من الدراسات لكنها بحاجة الى الاستغلال الأمثل .

تجد بعض المضخات تقذف بنهر من المياه لكنها تستغل بشكل عشوائي، ولذلك فقد ركزت فعاليات المعرض على نظام الري بالتقطير لحاجة الأراضي إلى هذا النظام حتى لا تهدر المياه أو تستغل باسلوب قديم .

الحمضيات منتشرة في وادي الهجرة، هذا الوادي الذي يقع على بعد عشرين كيلومترا غرب مدينة ذمار

في الطريق الى حمام علي ... السيارة متعبة لأنها قديمة، والطريق نصف ممهدة . الجميع يقولون باقي ربع ساعة الى حمام علي والدقائق تطول رغم جمال الطبيعية على جانبي الطريق حيث أشجار الحمضيات (البرتقال واليوسفي) .

عندما وصلت إلى الحمام تمنيت انني لم آت ولم أكلف نفسي هذا العناء لأرى هذه الحمامات غير النظيفة وغير المنظمة، المياه طبيعية ساخنة تخرج من بطن الجبل، مياه كبريتيه كان الإمام يحيى يقطع كل هذه المسافة حتى يستمتع بالاستحمام، .

يذكر البعض أن الكثيرين حاولوا الاستثمار في هذه القرية ببناء حمامات جديدة نظيفة وقادرة على استقبال السياح إلا أن بعض المتنفذين في هذه البلدة يريدون نصيبا من الأرباح فيضطر المستثمرون الى التراجع عن تنفيذ أي مشروع استثماري .

ذمار الأراضي الشاسعة التي لا تحتاج إلا القليل حتى تتحول الى جنة خضراء، وحده القات الذي يجد القدرة على الانتشار السريع فيما محاصيل البطاطس والطماطم التي توزع الى أنحاء الجمهورية في سوق معبر .

والى جانب الخضار والفاكهة تصدر ذمار الأحجار الذمارية السوداء الشهيرة .

وتصدر الرصاص الذي يتم إعادة تعبئة البارود في مشاغل كثيرة في ذمار.

ذمار تصدر كل ما هو صلب وساخر، وتستورد الموظفين والباحثين عن هوية اجتماعية قادرة على الحماية .

عندما وصلت الى صنعاء كانت الكاتيوشا تضرب مناطق القبائل لإرغامهم على الإفراج عن المختطفين، فهل ستنجح الكاتيوشا فيما أخفقت فيه التحولات ..؟

تم بحمد الله

طبع بمطابع وكالة الأنباء اليمنية سبأ.
تلفون: ٢٥٠٠٠٨٣/٢٢٠٤٩٥